ما لا يسع المفسر إغفاله وتركه من ضوابط التفسير

تأليف

د/ محسن عبد العظيم الشاذلي

أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدمياط الجديدة

ما لا يسع المفسر إغفاله وتركه من ضوابط التفسير

محسن عبد العظيم الشاذلي
قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدمياط الجديدة
Dr. Mohsen Abdul Azim@gmail.com

الملخص

فإن لكل علم قواعد ملزمة وضوابط حاكمة، إن التُزِمت نمت شجرة العلم وأثمرت وأينعت وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، وإن ضُيِّعت فسد بناء العلم وكان ضرره أكبر من نفعه ، ولا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، ومن أسس بنيانه على شفا جرف هار !!

والعلاقة بين التزام قواعد العلم وثواب ذلك –وكذا العلاقة بين مخالفة القواعد وعقوبتها– علاقة طردية ، فيزيد الثواب مع زيادة الالتزام بهذه القواعد ، وتشتد العقوبة مع تعمد المخالفة وفداحتها ، كما يعظم الثواب على حسب عظمة موضوع هذا العلم وغايته ، ولما كان التفسير علما ، وكان موضوعه كلام الله ﷻ ، كانت الحاجة إلى التزام قواعده وضوابطه أَمَسَّ ؛ لأن خطورة المخالفة فيه أشد ، فوبال القول فيه بالهوى –بعيدا عن القواعد والضوابط– يعود على قائله أولا بالإثم والذنب العظيم ، ويعود على الناس بالتضليل والزيغ عن شرع الله .

الكلمات المفتاحية : ضوابط– التفسير – القاعدة – القرآن – اليقظة

The Interpretation "Tafsir" Canons cannot be ignored and neglected by the interpretation scholar

Mohsen Abdul Azim Al-Shazly
Department of Interpretation and Qur'ânic Sciences
College of Islamic and Arabic Studies for Boys in New Damietta
dr.mohsenabdulazim@gmail.com

Abstract

Every science has binding rules and governing canons; if these rules and canons are followed, the knowledge and science go on bringing forth their benefits at all times by the permission of Allāh. If, however, these rules and canons are neglected, the knowledge and science were corrupted and their harm would be greater than their profit.

The relationship between commitment to the rules of knowledge and the reward therefor, as well as the relationship between violating the rules and its punishment, is a direct relation. So, the reward with the increased adherence to these rules, and the becomes more severe with the deliberately violation and disobedience. The reward is magnified according to the greatness of the subject and purpose of this science. Whereas the interpretation "Tafsir" is a great science and knowledge and its topic is the word of Allāh "Qur'ân", The need to abide by its rules and canons is urgent, because the seriousness of the violation is more severe. Since the bad consequences of saying from inclination, out of rules and canons, will firstly affect those who say such saying with great sin and guilt, and will then drive people to misleading and transgressing the decree of Allāh.

Keywords: Canons – Interpretation "Tafsir" – Rule – Qur'ân – Vigilance

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونسترضيه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وبعد

فإن لكل علم قواعد ملزمة وضوابط حاكمة، إن التُزِمت نمت شجرة العلم وأثمرت وأينعت وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، وإن ضُيِّعت فسد بناء العلم وكان ضرره أكبر من نفعه ، ولا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، ومن أسس بنيانه على شفا جرف هار !!

والعلاقة بين التزام قواعد العلم وثواب ذلك –وكذا العلاقة بين مخالفة القواعد وعقوبتها– علاقة طردية ، فيزيد الثواب مع زيادة الالتزام بهذه القواعد ، وتشتد العقوبة مع تعمد المخالفة وفداحتها ، كما يعظم الثواب على حسب عظمة موضوع هذا العلم وغايته ،

ولما كان التفسير علما (١) ، وكان موضوعه كلام الله ﷻ ، كانت الحاجة إلى التزام قواعده وضوابطه أمَسَّ ؛ لأن خطورة المخالفة فيه أشد ، فوبال القول فيه بالهوى –بعيدا عن القواعد والضوابط– يعود على قائله

---

١) يقول العلامة الدكتور الذهبي رحمه الله :"وقد نُقِل عن الإمام أحمد أنه قال: "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي" ومراده من قوله هذا – كما نُقِل عن المحققين من أتباعه – أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة لا كما استظهره الأستاذ أحمد أمين حيث يقول: "وظاهر هذه الجملة أن الأحاديث التى وردت فى التفسير لا أصل لها وليست بصحيحة، والظاهر – كما قال بعضهم – أنه يريد الأحاديث المرفوعة إلى النبى ﷺ فى التفسير. أما الأحاديث المنقولة عن الصحابة فلا وجه لإنكارها، وقد اعترف هو نفسه ببعضها".

وحيث يقول: "إن بعض العلماء أنكر هذا الباب بتاتاً، أعنى أنه أنكر صحة ورود ما يروونه من هذا الباب، فقد روى عن الإمام أحمد أنه قال: "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازى".

نعم.. ليس الأمر كما استظهره صاحب "ضحى الإسلام" و "فجر الإسلام"، لأنه مما لا شك فيه أن النبى ﷺ صحَّت عنه أحاديث فى التفسير، والإمام أحمد نفسه معترف بها، فكيف يُعقل أن الإمام أحمد يريد من عبارته السابقة نفى الصحة عن جميع الأحاديث المرفوعة إلى النبى ﷺ فى التفسير؟ – وظنى أن الأستاذ أراد بالبعض المذكور، المحققين من أصحاب الإمام أحمد، غاية الأمر أنه حمل كلامهم على غير ما أردوا فوقع فى هذا الخطأ " انظر : التفسير والمفسرون (١/ ٣٧) ، قلت : وواضح أيضا أن ما قاله الإمام أحمد رحمه الله خاص بحالة معينة من مصدر واحد من مصادر التفسير المأثور (وهو مراسيل التابعين كما صرح بذلك غير واحد من المحققين) وليس عاما في كل أنواع التفسير ومصادره ، فضلا عن قواعد وضوابط هذا العلم .

أولا بالإثم والذنب العظيم ، ويعود على الناس بالتضليل والزيغ عن شرع الله .

ولما كان –كذلك علما– كسائر العلوم ، له قواعده وضوابطه ، كان الالتزام بهذه القواعد والضوابط سببا في نمو شجرة هذا العلم المبارك ، يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل ، يسير المفسر في ظلالها عمرا طويلا لا يقطعها ،

من هنا كانت الحاجة ماسة إلى الكلام عن ما يحتاج إليه المفسر من قواعد وضوابط تعينه على سداد القول وتبعده عن الشطط والجور ،

ولما كانت كتابات العلماء –منذ القدم– متكاثرة في القواعد المتعلقة بأهداف التفسير نفسه ، آثرت أن أخصص بحثي هذا للقواعد المتعلقة بخصائص القرآن الكريم وأهدافه وخطوات التفسير ؛ ليكون مفتاحا للقارئ المتدبر وللمفسر المبتدئ ، عنونت له ب(ما لا يسع المفسر إغفاله وتركه من ضوابط التفسير) جعلته في تمهيد ، وفصلين وخاتمة ..

تكلمت في التمهيد عن مفهوم الضابط، والفرق بينه وبين (القاعدة)

وكان عنوان الفصل الأول : الضوابط المتعلقة بخصائص القرآن الكريم ،
وفيه مبحثان :

المبحث الأول : خصائص القرآن الكريم ،

المبحث الثاني : ما لا يسع المفسر تركه من ضوابط تخدم خصائص القرآن الكريم

وكان عنوان الفصل الثاني : الضوابط المتعلقة بأهداف القرآن الكريم
وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أهداف القرآن الكريم ،

المبحث الثاني : ما لا يسع المفسر تركه من ضوابط تخدم أهداف القرآن الكريم .

ثم كانت الخاتمة متضمنة :

أهم نتائج البحث

التوصيات

الفهارس .

سائلا المولى ﷻ أن يوفقني للحق، ويلهمني السداد والرشد، ويغفر لي ما وقعت فيه من خطأ أو نسيان أو تقصير ، وأن ينفع به قارئه وكاتبه . اللهم آمين .

محسن عبد العظيم الشاذلي

قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدمياط الجديدة

تمهيد
في معنى القاعدة والضابط والفرق بينهما

القواعد جمع قاعدٍ وقاعدة ،

"والقاعِدَةِ: أَصلُ الأُسِّ، والقَواعِدُ: الأساسُ، وقواعِد الْبَيْتِ أساسُه. وَفِي التَّنْزِيلِ: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ ﴾، وَفِيهِ ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: القَوَاعِدُ أَساطِينُ الْبِنَاءِ الَّتِي تَعْمِدُه. وقَواعِدُ الهَوْدَجِ: خَشَبَاتٌ أَربع مُعْتَرِضَةٌ فِي أَسفله تُرَكَّبُ عِيدانُ الهَوْدَجِ فِيهَا. قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: قَوَاعِدُ السَّحَابِ أُصولها الْمُعْتَرِضَةُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ شُبِّهَتْ بِقَوَاعِدِ الْبِنَاءِ؛ قَالَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ سأَل عَنْ سَحَابَةٍ مَرَّت فَقَالَ: كَيْفَ تَرَوْنَ قواعِدَها وبواسِقَها؟

وَقَالَ ابْنُ الأَثير: أَراد بِالْقَوَاعِدِ مَا اعْتَرَضَ مِنْهَا وسَفَل تَشْبِيهًا بِقَوَاعِدِ الْبِنَاءِ"(١).

أما الضوابط فجمع ضابط، وهو مأخوذ من الضبط ومن معانيه : لزوم الشيء وحبسه ، والحزم والقوة والحصر والإحكام والإتقان .

اصطلاحاً/ لم يفرق البعض بينهما، كالفيومي ٧٧٠هـ (٢)، وابن الهمام ٨٦١هـ (٣) والنابلسي ١١٤٣هـ (٤).

---

١) لسان العرب (٣/ ٣٦١)

٢) أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس: لغوي، اشتهر بكتابه (المصباح المنير – ط) ولد ونشأ بالفيوم (بمصر) ورحل إلى حماة (بسورية) فقطنها.. قال ابن حجر: كأنه عاش إلى بعد ٧٧٠ هـ.

٣) محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد ابن مسعود، السيواسي ثم الإسكندري، كمال الدين، المعروف بابن الهمام: إمام، من علماء الحنفية.- عارف بأصول الديانات والتفسير والفرائض والفقه والحساب واللغة والموسيقى والمنطق.- ولد بالإسكندرية، ونبغ في القاهرة. وأقام بحلب مدة ، وجاور بالحرمين. وتوفي بالقاهرة. من كتبه (فتح القدير – ط) في شرح الهداية، ثماني مجلدات في فقه الحنفية، و (التحرير – ط) في أصول الفقه وغيرها . الأعلام للزركلي

٤) عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي: شاعر، عالم بالدين والأدب، مكثر من التصنيف، متصوف.- ولد ونشأ في دمشق، ورحل إلى بغداد، وعاد إلى سورية، فتنقل في فلسطين ولبنان، وسافر إلى مصر والحجاز، واستقر في دمشق وتوفي بها.

والأكثر على التفريق بينهما كابن السبكي ٧٧١هـ [١]. وتابعه الزركشي ٧٩٤هـ [٢] والسيوطي ٩١١هـ [٣] وابن نجيم ٩٧٠هـ [٤] والفتوحي ٩٧٢هـ [٥] وغيرهم حيث فرقوا بينهما بأن الضابط : ما يختص بباب معين وقصد به نظم صور متشابهة، بخلاف القاعدة ، وهذا هو الغالب في إطلاق لفظ الضابط .

---

١) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي نسبة إلى سُبك من قرى محافظة المنوفية بمصر. فقيه شافعي أصولي مؤرخ وهو شقيق بهاء السبكي. يلقب بقاضي القضاة تاج الدين. ولد بالقاهرة، وأخذ العلم عن علمائها. ثم رحل إلى دمشق ، وهناك تلقى العلم عن كبار علماء دمشق. أجازه شمس الدين بن النقيب بالإفتاء، وقد أفتى ولم يتجاوز عمره ثماني عشرة سنة. انتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام. له مؤلفات كثيرة منها: شرح مختصر ابن الحاجب؛ شرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه المسمى الإبهاج شرح المنهاج؛ القواعد المشتملة على الأشباه والنظائر ؛ جمع الجوامع في أصول الفقه؛ وشرحه المسمى منع الموانع. توفي بدمشق.

٢) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين – عالم بفقه الشافعية والأصول. تركي الأصل، مصري المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها: (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة – ط) ،(لقطة العجلان – ط) في أصول الفقه ، (البحر المحيط – خ) ثلاث مجلدات في أصول الفقه .

٣) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين – إمام حافظ مؤرخ أديب. • نشأ في القاهرة يتيما (مات والده وعمره خمس سنوات)• ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزويا عن أصحابه جميعا، كأنه لا يعرف أحدا منهم، فألف أكثر كتبه.•وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. وبقي على ذلك إلى أن توفي – من كتبه: • (الإتقان في علوم القرآن – ط) ، (الأشباه والنظائر – ط) في فروع الشافعية، وغيرهما

٤) زين الدين بن إبراهيم بن محمد، الشهير بابن نجيم: فقيه حنفي، من العلماء. مصري. له تصانيف، منها (الأشباه والنظائر – ط) في أصول الفقه و (البحر الرائق في شرح كنز الدقائق – ط) فقه . ثمانية أجزاء

٥) محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي، تقي الدين أبو البقاء، الشهير بابن النجار: فقيه حنبلي مصري. من القضاة. قال الشعراني: صحبته أربعين سنة فما رأيت عليه شيئا يشينه، وما رأيت أحدا أحلى منطقا منه ولا أكثر أدبا مع جليسه. له (منتهى الإرادات في جمع المقنع مع التنقيح وزيادات – ط) مع شرحه للبهوتي، في فقه الحنابلة، و (شرحه – خ) غير تامّ – الأعلام للزركلي (٦/ ٦)

قال الإمَامُ تَاجُ الدِّين السُّبكِي (ت ٧٧١هـ): "الغَالِبُ فِيمَا اخْتَصَّ بِبَابٍ وَقُصِدَ به نَظمُ صُوَرٍ مُتَشَابِهَةٍ ، أَنْ يُسَمَّى ضَابِطاً ". وقال الإِمَامُ بدرُ الدين الزَّركَشِي (ت ٧٩٤هـ): "مَا لا يَخُصُّ بَاباً مِنْ أَبْوابِ الفِقْهِ...يُسَمَّى بِالقَاعِدةِ فِي اصطِلاحِ الفُقَهاء ، وأَمَّا مَا يَخُصُّ بَعضَ الأَبوَابِ فَيُسَمَّى ضَوَابِطَ ". وقال الإمامُ جَلالُ الدِّين السُّيُوطِي (ت ٩١١هـ): "إِنَّ القَاعِدَةَ تَجْمَعُ فُرُوعاً مِنْ أَبْوَابٍ شَتَّى ، والضَّابِطُ يَجْمَعُ فُرُوعاً مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ". وقال الإمامُ ابنُ نُجَيم : "وَالفَرقُ بينَ الضَّابِطِ والقَاعِدَةِ ، أنَّ القَاعِدَةَ تَجْمَعُ فُرُوعاً مِنْ أَبْوابٍ شَتَّى ، والضَّابِطُ يَجْمَعُها مِن بابٍ واحدٍ ، هذا هو الأَصل "

ويمكن إجمال الفروق بينهما من حيث الواقع في كتب التراث بما يأتي :

١- أن القاعدة تشمل غالباً أبواب الفقه أو أكثرها، بينما الضابط لا يشمل إلا باباً واحداً، بل قد يكون في مسألة واحدة من الباب، فالقاعدة أعم وأشمل في جمع الفروع وشمول المعاني .

٢- أن القاعدة يحصل الاتفاق عليها في غالب المذاهب ، بينما الضابط يختص غالباً بمذهب معين ، بل بإمام معين من أئمة المذهب أحياناً.

٣- أن القاعدة جزئياتها قضايا كلية فقهية ، بخلاف الضابط فجزئياته أشخاص وأفراد تعلقت بهم الأحكام الشرعية .

٤- أن القاعدة تصاغ غالباً بعبارة موجزة ، بخلاف الضابط فالغالب أن يصاغ بعبارة مطولة .

٥- تصور الاستثناء في القواعد أكثر منه في الضوابط ؛ لأن معاني القاعدة أكثر فيتطرق لها الاستثناء ، بخلاف الضابط فإن معناه مرتبط بموضوع محدد فيقل تطرق الاستثناء إليه .

٦- القواعد في الجملة يمكن الاحتجاج بها بخلاف الضوابط .

٧- القواعد لها مستند تعتمد عليه من كتاب أو سنة أو إجماع أو نحو ذلك من الأدلة المعتبرة ، بخلاف الضابط فهو قانون وضعي مميز من اجتهاد واضعه لا يستند إلى دليل سوى الاستقراء والتتبع ، وكأنها نتائج البحث وملخصه " [١].

وبناء على هذه التفرقة فإن الباحث يرى أن استعمال كلمة (الضوابط) أليق وأوفق بموضوع البحث ؛ لما يلي :

أولا : أن هذه الضوابط –المذكورة في البحث– في غالبها اجتهاد شخصي في أبواب محددة ، معتمد في بعضها على أدلة شرعية ، وفي البعض الآخر على استنباطات من أحوال نزول القرآن الكريم .

ثانياً : أن القواعد –المقررة في علم التفسير– تحتاج إلى تفصيلات وتفريعات وتطبيقات على مسائل متعددة ، وهذا ما لا نحتاج إلى ذكره في هذه الضوابط .

ثالثاً : أن إقرار القواعد –في علم ما– لا يتم –في الغالب– إلا باتفاق جمهور الفن عليه؛ لاستمداده من الأدلة الشرعية المعتبرة ، وهذا ما لم يتوفر لهذه الضوابط .

١) راجع في الفرق بين القاعدة والضابط : الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص: ١٣٧) موسوعة القواعد الفقهية (١/ ١/ ٣٥) القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة (١/ ٢٣) المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية (ص: ٣٣٠)

الفصل الأول
الضوابط المتعلقة بخصائص القرآن الكريم

وفيه مبحثان :

المبحث الأول :

خصائص القرآن الكريم .

المبحث الثاني :

ما لا يسع المفسر تركه من ضوابط بناء على خصائص القرآن الكريم .

المبحث الأول : خصائص القرآن الكريم :

أولا : تعريف الخصائص :

الخصائص : جمع (خصيصة) ، من "خَصَّهُ بِالشَّيْءِ يخُصّه واخْتصّه: أَفْرَدَه بِهِ دُونَ غَيْرِه. وَيُقَالُ: اخْتصّ فلانٌ بالأَمر وتخصّصَ لَهُ إِذا انْفَرَدَ، وخَصّ غيرَه واخْتصّه بِبِرِّه " (١)

وعليه ، فمعناها : الصفة التي تميز الشيء عن غيره وتحدده (٢) ،

١) لسان العرب (٧/ ٢٤) باختصار

٢) معجم الصواب اللغوي (١/ ٣٥١)

وقد اشتهر استعمال كلمة (الخصائص) قديما ، فابن أبي يعلى (ت٢٥٦هـ) في كتابه (الاعتقاد) عقد فصلا بعنوان (خصائص القرآن) ، كما استعملها النسائي(١) والطحاوي(٢) والزمخشري(٣) والجاحظ(٤)وغيرهم ، وقد سمى ابن جني(٥) كتابا له (الخصائص) .

١) النَّسائي (٢١٥-٣٠٣ هـ، ٨٣٠ – ٩١٥م): أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي الكبير، القاضي الإمام شيخ الإسلام، أحد الأئمة المبرزين والحفاظ المتقنين، والأعلام المشهورين. طاف البلاد وسمع من ناس في خراسان والعراق والحجاز ومصر والشام والجزيرة وغيرها. رحل إلى قتيبة وله ١٥ سنة. قال الحاكم: كان النسائي أفقه مشايخ مصر في عصره وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار وأعرفهم بالرجال. له من الكتب: السنن الكبرى في الحديث؛ المجتبى وهو السنن الصغرى، خصائص عليّ؛ مسند عليّ؛ ضعفاء والمتروكون بمسند مالك. وقد جعل في كتابه[السنن الكبرى) كتابا سماه كِتَابُ الْخَصَائِصِ ٧/ ٤٠٧، ذكر فيه خصائص سيدنا علي ﷺ .

٢) الطحاوي (٢٣٨ – ٣٢١هـ، ٨٥٢ – ٩٣٣م) :أحمد بن محمد بن سلامة أبو جعفر الطحاوي. من طحا، قرية بصعيد مصر. محدِّث، فقيه مشهور بمؤلفه العقيدة الطحاوية. درس فقه الشافعية على خاله المزني، صاحب الإمام الشافعي. ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة فتفقه على الفقيه الحنفي أحمد بن أبي عمران. رحل إلى الشام، فسمع الحديث ببيت المقدس وغزة وعسقلان ودمشق، وفيها تفقه . ثم عاد إلى مصر. انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. مصنفاته كثيرة، منها: شرح معاني الآثار؛ مشكل الآثار؛ اختلاف الفقهاء؛ المختصر في الفقه؛ والعقيدة وهي مشهورة باسم العقيدة الطحاوية؛ أحكام القرآن؛ الوصايا؛ المحاضر والسجلات وغيرها. دفن بمصر. وقد جاءت هذه الكلمة في كتابه [شرح مشكل الآثار ١٠/ ٢٥٩]

٣) الزمخشري (٤٦٧ – ٥٣٨هـ ، ١٠٧٤ – ١١٤٣م): أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. كان إمامًا في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم، كبير الفضل متفننًا في علوم شتى. ولد بزمخشر من ضواحي خوارزم، وتوفي بقصبة خوارزم ليلة عرفة. وكان معتزلي المذهب. من تصانيفه الكشاف في تفسير القرآن ، الفائق في غريب الحديث ، المستقصي في أمثال العرب ، أساس البلاغة ، وغيرها كثير ، وقد وردت هذه الكلمة مرتين في تفسير الزمخشري- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- في : ٣/ ١٥٣ ، ٣/ ٥٤٩] وفي[أساس البلاغة ١/ ١٦].

٤) الجاحظ : عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة (١٦٣ – ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ – ٨٦٩ م). فلج في آخر عمره. وكان مشوه الخلقة. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة، منها : «الحيوان – ط» أربعة مجلدات، و «البيان والتبيين – ط» و «سحر البيان – خ» و«التاج – ط» ويسمى أخلاق الملوك، و «البخلاء – ط» وغيرها ، وكلمة (الخصائص) ذكرها الجاحظ في عدة مواطن من كتبه ، ومنها في : [الرسائل السياسية ص: ١٠٢، ص: ٤٧٦] ، و[الرسائل للجاحظ ١/ ١٠، ٣/ ١٥٧]

٥) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي من أئمة الأدب والنحو، ولد بالموصل وتوفي ببغداد، عن نحو ٦٥ عاما. وكان حنفي المذهب، معتزلي العقيدة، بصرياً في مذهبه النحوي.تربو تصانيفه على الخمسين، وكتاب الخصائص يعد من أجل تآليفه وهو (كتاب في أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه) وقد بناه على (١٦٢) باباً، وحشر فيه الكثير من القراءات الشاذة التي أودعها في كتابه (المحتَسَب) . طبع الكتاب لأول مرة في مصر سنة (١٣٣١هـ ١٩١٣م) (جزء منه) ، ثم طبع كاملاً بتحقيق الأستاذ محمد على النجار، في ثلاثة أجزاء ما بين ١٩٥٢ و١٩٥٥م.

واستعملها المعاصرون على أنها جمع (خصيصة) بمعنى "ما يميز الشيء عن غيره ويحدده " على ما أقره مجمع اللغة العربية .

وعليه ، فالمراد بخصائص القرآن الكريم هنا : الأمور التي انفرد بها القرآن الكريم وتميز بها عن غيره من سائر النصوص الشرعية ، وكذا عن سائر الكلام .

وقد تناثرت هذه الخصائص في مقدمات كتب التفاسير وتخللت في ثناياها، غير أن أحدا لم يفردها بالتصنيف والتأليف في مؤلف مستقل .

ثانياً : خصائص القرآن الكريم (١) :

إن قراءة القرآن وتلاوته عبادة مثل سائر العبادات،

وهي من الذكر، يؤجر القارئ على قراءته له؛ ولذلك حثنا رسول الله ﷺ على تلاوته ودلنا على عظيم أجره.

كما أن تدبره والعمل به واجب على كل مسلم كما قال ﷻ ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]

---

١) اشتهر عند الكثيرين أن من خصائص القرآن الكريم نزوله مفرقا بخلاف غيره من الكتب السماوية ، استدلالا بمفهوم قوله ﷻ ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ ، وهذا أمر فيه نظر ، كما قال العلامة القاسمي عند تفسير هذه الآية ، قال رحمه الله : " تنبيه: يذكر المفسرون هاهنا أن الآية رد على الكفرة في طلبهم نزول القرآن جملة، كنزول بقية الكتب جملة. ويرون أن القول بنزول بقية الكتب دفعة، صحيح.

فيأخذون لأجله في سرّ مفارقة التنزيل له. والحال أن القول بنزولها دفعة واحدة لا أصل له، وليس عليه أثارة من علم، ولا يصححه عقل. فإن تفريق الوحي وتمديد مدته بديهيّ الثبوت. لمقدار مكث النبيّ. إذ ما دام بين ظهراني قومه، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة. ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين، يتجلى له ذلك واضحا لا مرية فيه. وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك. وما كل كلام معرّض به.

وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص، وتعنت متفنن فيه. والله أعلم." تفسير القاسمي –المسمى محاسن التأويل ٧/ ٤٢٧ – قلت : هو كلام وجيه معتبر ، يؤيده تجدد حاجة النبي –أي نبي– للوحي كل فترة ؛ وعليه فلا أعتبر أن (نزول القرآن –دون غيره– مفرقا) من خصائص القرآن الكريم كما اشتهر عند كثير من أهل التخصص .

ومفتاح ذلك العمل هو التفسير والكشف عن معانيه ، كما قال إياس بن معاوية: "مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلًا، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة، ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب".

ومن ثم ترتبط سلامة العمل بصحة التفسير ؛ فلا يكون العمل صحيحا إلا إذا كان التفسير صحيحا ، ومتى فسد التفسير ضل العمل ،

ولا يكون التفسير مستقيما إلا إذا كان على غرض المفسَّر ، وكان المفسِّر متفهما لخصائص المفسَّر ،

ولذا ينبغي على كل من رام تفسير القرآن الكريم أن يتفهم خواصه ويتعرف أهدافه؛ حتى يكون تفسيره سليما وقوله سديدا .

وللقرآن الكريم خواص ليست لغيره من النصوص الشرعية، سواء كان شرع من سبقنا، أو سنة نبينا، أو قراءة لم تتوفر لها شروط الصحة القبول، **وهذه الخصائص هي :**

أولا : كونه كله وحيا جليا ، في حال اليقظة .

المعروف أن الوحي إلى النبي ﷺ كان له أحوال عدة :

فأحيانا لا يشعر بالوحي أحد ممن حوله ﷺ، كأن يأتيه في المنام، أو يأتيه في صورة إلهام، وهو ما يسمى بالوحي الخفي ،

وأحيانا أخرى تظهر عليه ﷺ من الأمارات ما يفهم الحاضرون منه أنه ﷺ يوحى إليه فيتفصد جبينه عرقا[١]، ويثقل جسمه الشريف[٢] ويسمع

١) في البخاري عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت : "وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا" [صحيح البخاري ١/ ٧]

٢) في البخاري أن زَيْد بْن ثَابِتٍ رضي الله عنه : قال «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي» [صحيح البخاري ١/ ٨٣]

الحاضرون حول وجهه ﷺ صوتا كطنين النحل أو صلصلة الجرس[١] ، وهو ما يعرف بالوحي الجلي . فكان الوحي بالقرآن كله من النوع الثاني.

ومعنى هذا أن كل ما نزل على النبي محمد ﷺ من القرآن الكريم كان معلوما لكل من شاهده .

ثانيا : كونه كله متواترا[٢] ؛ وهو بهذا قطعي الثبوت ، بخلاف غيره غيره من النصوص الشرعية ، التي يغلب على أكثرها كونها أخبار آحاد.

ولا أعلم خلافا في أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواتراً في أصله وأجزائه، وأما في محلّه ووضعه وترتيبه فعند المحقّقين من علماء أهل السّنة كذلك، أي يجب أن يكون متواتراً. فقد جاء في (مسَلَّم الثّبوت وشرحه فواتح الرحموت) : "ما نقل آحاداً فليس بقرآن قطعاً، ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب، واستدل بأن القرآن مما تتوفر الدواعي على نقله لتضمّنه التحدّي; ولأنه أصل الأحكام باعتبار المعنى والنظم جميعاً حتى تعلق بنظمه أحكام كثيرة; ولأنه يتبرك به في كلّ عصر بالقراءة والكتابة، ولذا علم جهد الصحابة في حفظه بالتواتر القاطع، وكلّ ما تتوفر دواعي نقله ينقل متواتراً عادةً، فوجوده ملزوم للتواتر عند الكلّ عادةً، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر انتفى الملزوم قطعاً، والمنقول آحاداً ليس متواتراً، فليس قرآناً" [٣].

---

١) في الصحيحين من حديث عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ» متفق عليه ، انظر : صحيح البخاري – كتاب الإيمان– باب بدء الوحي ١/ ٦ ، مسلم –كتاب الفضائل– باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي ٤ / ١٨١٦ .

٢) المتواتر : "الخبر الذي ينقله من يحصل العلم بصدقه ضرورة –بأن يمتنع في العادة تواطؤهم على الكذب أو اتفاقهم عليه– ولا بد في إسناده من استمرار هذا الشرط في رواته من أوله إلى منتهاه"[الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح ٢/ ٤٣٥] بتصرف .

٣) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت (٣/ ١٤)

وبهذه الخصيصة تخرج القراءات غير المتواترة عن كونها قرآنا ، كما سيأتي بيان ذلك وتفصيله في خصيصة (تعدد وجوه قراءته) .

ثالثا : كونه كله من عند الله ﷻ لفظا ومعنى ؛ من الفروق بين القرآن الكريم وبين الحديث القدسي : أن القرآن الكريم من عند الله لفظا ومعنى أما الحديث القدسي فمعناه من عند الله واللفظ من عند رسول الله ﷺ ، وهو لهذا لا تجوز روايته بالمعنى بخلاف غيره، ومن الفروق بينه وبين الحديث النبوي : أن الحديث النبوي لفظه للنبي ﷺ، ومعناه من عند النبي ﷺ ابتداء والوحي يقره عليه أو يصحح له، ولهذا فإنه يثبت للقرآن الكريم من الحرمة ما لم يثبت لغيره من الأحاديث ، وسيأتي بيان ذلك في (خامسا) .

رابعا : كونه متعبدا بتلاوته في الصلاة ؛ قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا(٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ – ٤]

وهذه الأربعة مما ينفرد به القرآن عن الحديث النبوي والقدسي وسائر الكتب السماوية السابقة ، فقد وقع الوحي –في جملتها– بشكليه الجلي والخفي ، وفيها المتواتر والآحاد ، ولا يتعبد بتلاوتها في الصلاة .

خامسا : وجوب تقديره والعناية به ؛ فيحرم على الجنب تلاوة شيء منه [١] ، ويحرم السفر به إلى أرض الكفار[٢] ، ويحرم بيعه للكافر كذلك،

١) عن أبي الغريف عن علي ﷺ قال : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – توضأ، ثم قرأ شيئاً من القرآن، ثم قال: "هذا لمن ليس بجنب، فأما الجنب فلا، ولا آية". [صحيح ابن حبان– محققا ٣/ ٨٠]

٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ العَدُوِّ " متفق عليه ، انظر : صحيح البخاري ٤/ ٥٦، كتاب الجهاد والسير باب السفر بالمصاحف الى أرض العدو ، وصحيح مسلم ٣/ ١٤٩٠كتاب الامارة باب النَّهْيِ أَنْ يُسَافَرَ بِالْمُصْحَفِ إِلَى أَرْضِ الْكُفَّارِ إِذَا خِيفَ وُقُوعُهُ بِأَيْدِيهِم .

قال الامام الشيرازي[1] في المهذب : " ولا يجوز بيع المصحف ولا العبد المسلم من الكافر لأنه يعرض العبد للصَّغار والمصحف للابتذال "[2] .

سادسا : سلامته من الاختلاف والتناقض، قال القاسمي [3] –في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ :" وفي بقية الآية العذر للمصنفين فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض. لأن السلامة عن ذلك من خصائص القرآن".[4].

سابعا : حرمة تفسيره بمجرد الرأي ، فلا يجوز لأي إنسان أن يتصدى لتفسير كتاب الله وهو غير عالم بأصول وضوابط التفسير، بل لابد له من علوم يجمعها ، وقواعد يلزمها ، وضوابط لا يعدوها ؛ لأن القول في التفسير بمجرد الرأي هو قول على الله بغير علم ، وهو حرام ؛ لقوله ﷻ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ

---

١) الشيرازي (٣٩٣ - ٤٧٦ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٨٣ م) إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي، أبو إسحاق: العلامة المناظر. ولد في فيروزآباد (بفارس) وانتقل إلى شيراز فقرأ على علمائها. وانصرف إلى البصرة ومنها إلى بغداد (سنة ٤١٥ هـ) فأتم ما بدأ به من الدرس والبحث. وله تصانيف كثيرة، منها (التنبيه – ط) و (المهذب – ط) في الفقه، و (التبصرة – خ) في أصول الشافعية، و (طبقات الفقهاء – ط) و (اللمع – ط) في أصول الفقه، وشرحه ، مات ببغداد وصلى عليه المقتدي العباسي .

٢) [المهذب في فقة الإمام الشافعي للشيرازي ٢/ ٢١]

٣) جمال الدين القاسمي (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ = ١٨٦٦ - ١٩١٤ م) : جمال الدين (أو محمد جمال الدين) بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الادب. مولده ووفاته في دمشق ، كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد. له عديد من المصنفات، منها (دلائل التوحيد – ط) و (مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن – ط) و (شرف الأسباط – ط) و (تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب – ط) و (إصلاح المساجد من البدع والعوائد – ط) و (تعطير المشام في مآثر دمشق الشام – خ) أربع مجلدات، و(قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث – ط) و (محاسن التأويل – ط) في ١٧ مجلدا في تفسير القرآن الكريم. وغيرها .

٤) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٣/ ٢٣٤)

وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا **وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣]

ثامنا : أنه الكتاب الوحيد الذي تكفل الله تعالى بحفظه ، قال ﷻ ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ قال العلامة الآلوسي : "كونه محفوظا فى الصدور من خصائص القرآن لأن من تقدم كانوا لا يقرأون كتبهم إلا نظرا فإذا أطبقوها لم يعرفوا منها شيئا سوى الأنبياء" (١)

تاسعا : تيسير حفظه وفهمه على الناس ، قال ﷻ ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ القمر ،

"قال المفسرون: من خصائص القرآن العظيم أنَّ الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقين: الأول: الحفظُ في السطور، والثاني: الحفظُ في الصدور، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطْرة لديهم غير محفوظة في صدروهم ؛ ولهذا دخلها التحريف" (٢)

عاشرا : كثرة أسمائه ، وتعدد الأسماء من أمارات عظمة المسمى ، وقد صح في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ﴿ إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ﴾ (٣)

حادي عشر : كثرةُ أوصافه كثرةً تدل على عظمته ومكانته ، واقرأ في ذلك مفتتح سور(البقرة ، آل عمران ، الأعراف ، هود ، يوسف ، الرعد ، الكهف ، طه ، النمل ، لقمان ، فصلت ، الزخرف ، ق ، الجن) تجد فيها –على الترتيب– أن القرآن (هدى للمتقين ، مصدق لما بين

---

١) روح البيان (٦/ ٤٨١)

٢) صفوة التفاسير (٢/ ٤٢٧)

٣) متفق عليه – انظر : [صحيح البخاري ٣/ ١٩٨ – كتاب الشروط – بَابُ مَا يَجُوزُ مِنَ الِاشْتِرَاطِ وَالثُّنْيَا فِي الإِقْرَارِ، وَالشُّرُوطِ الَّتِي يَتَعَارَفُهَا النَّاسُ بَيْنَهُمْ، وَإِذَا قَالَ: مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدَةً أَوْ ثِنْتَيْنِ، [صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٣] كتاب الذكر والدعاء بَابٌ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِ مَنْ أَحْصَاهَا .

يديه، منذر ، مُحْكَم ، مبِين ، حق ، قيِّم لا عوج فيه ، تذكرة ، هدى وبشرى ، هدى ورحمة ، مُفَصَّل ، عَلِيٌّ حكيم ، مَجيد ، يهدي إلى الرشد)

هذا غير الآيات التي ورد فيها بعض أوصافه في ثنايا السور ، ومنها على سبيل المثال :

قوله ﷻ ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قوله ﷻ ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

قوله ﷻ ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الأنعام: ٩٢]

قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]

قوله ﷻ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]

قوله ﷻ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]

قوله ﷻ ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]

قوله ﷻ ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

ثاني عشر : تعدد وجوه قراءته ، قال الزركشيّ: القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور، من الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما.

وللقراءة الصحيحة أركان ، قال ابن الجزريّ: كلّ قراءة وافقت العربية – ولو بوجه – ووافقت أحد المصاحف العثمانية – ولو احتمالاً – وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها، ولا يحلّ إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها ضعيفةً، أو شاذةً، أو باطلةً، سواء كانت عن السبعة، أم عمن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف.

قال أبو شامة: فلا ينبغي أن يغتر بكلّ قراءة تعزى إلى أحد السبعة، ويطلق عليها لفظ الصّحة، وأنها أنزلت هكذا، إلا إذا دخلت في ذلك الضابط، فإن القراءة المنسوبة إلى كلّ قارئ من السبعة وغيرهم، منقسمة إلى المجمع عليه، والشاذّ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم.

والقراءات أنواع باعتبار قبولها وعدمه ، قال الإمام أبو محمد مكّيّ: جميع ما روي في القرآن على ثلاثة أقسام:

قسم يقرأ به اليوم، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال وهن: أن ينقل عن الثّقات عن النبيّ ﷺ ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن

سائغاً، ويكون موافقاً لخطّ المصحف، فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرئ به، وقطع على مغيبه وصحته وصدقه; لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خطّ المصحف، وكفر من جحده.

والقسم الثاني: ما صح نقله عن الآحاد، وصح وجهه في العربية، وخالف لفظه خط المصحف، فهذا يقبل ولا يقرأ به لعلتين:

إحداهما: أنه لم يؤخذ بإجماع، إنما أخذ بأخبار الآحاد، ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد. والعلة الثانية: أنه مخالف لما قد أجمع عليه، فلا يقطع على مغيبه وصحته، وما لم يقطع على صحته لا يجوز القراءة به، ولا يكفر من جحده، ولبئس ما صنع إذا جحده.

والقسم الثالث: هو ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية، فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف. وقد نقل ابن الجزريّ والسّيوطيّ كلام أبي محمد مكّيّ.

وهي كذلك أنواع من حيث السند ، الأول: المتواتر، وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى منتهاه، وغالب القراءات كذلك.

الثاني: المشهور، وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة المتواتر، ووافق العربية والرسم، واشتهر عند القراء فلم يعدّوه من الغلط، ولا من الشّذوذ، ويقرأ به، ومثاله ما اختلفت الطّرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرّواة عنهم دون بعض.

الثالث: الآحاد، وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، ولا يقرأ به، وقد عقد الحاكم في مستدركه والتّرمذيّ في جامعه لذلك باباً أخرجا فيه شيئاً كثيراً صحيح الإسناد.

الرابع: الشاذّ، وهو ما لم يصح سنده.

الخامس: الموضوع، كقراءات الخزاعيّ.

قال السّيوطيّ: وظهر لي سادس يشبه من أنواع الحديث المدرج، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص (وله أخ أو أخت من أمّ)، وقراءة ابن عباس (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم في مواسم الحجّ).

أخيرا : كونه المعجزة الوحيدة الباقية من زمن النبوة ، والمستمرة إلى يوم القيامة، وذلك رغم كثرة أنبياء الله ، وتعدد معجزاتهم ﷺ ، إلا أنها كلها كانت معجزات وقتية تنتهي في زمان النبي ﷺ ، ولم يتبق منها كلها إلا القرآن معجزة النبي محمد ﷺ الخالدة .

المبحث الثاني

ما لا يسع المفسر تركه من ضوابط تتعلق بخصائص القرآن الكريم .

ينبني على ما سبق عرضه من خصائص القرآن الكريم أن يلتزم المفسر للقرآن بعدة ضوابط في تعامله مع القرآن الكريم ، بيانها كالتالي:

الضابط الأول : تقديم القرآن الكريم وقراءاته المتواترة على غيره من النصوص الشرعية، ويشمل هذا التقديمُ : التقديمَ في التفسير، والتقديم في الحكم عند التعارض.

وهذا بناء على كون القرآن الكريم كله وحيا جليا، وكونه كله متواترا، وأن من خصائص القرآن الكريم تعدد وجوه قراءته ، وهذا يوفر مصدرا للتفسير النقلي السليم، ومعلوم أن التفسير النقلي (الأثري) أوثق وأسد من التفسير العقلي،

وبناء أيضا على أنه كله بلفظه ومعناه من عند الله ﷻ ، وهذا يتطلب الاحتياط التام لتفسيره،

- فالمفسر مطالب أن يبحث عن تفسير للنص القرآني في النصوص الشرعية أولا –وهو ما يعرف بالتفسير المأثور[1]– وهي متفاوتة في قوة ثبوتها والثقة بصحتها ، فمنها المتواتر كله ، ومنها ما بعضه متواتر وبعضه آحاد ، ومنها ما هو كله من قبيل الآحاد ، والقرآن الكريم كله –وقراءاته السبعة– من النوع الأول ، وبالتالي يجب البحث فيه أولا عن تفسير غوامضه ، فإن لم يجد المفسر فيه ما يبتغيه

١) يقول العلامة الدكتور الذهبي رحمه الله : " يشمل التفسير المأثور ما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول ﷺ ، وما نُقِل عن الصحابة ﷺ ، وما نُقِل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضح لمراد الله ﷻ من نصوص كتابه الكريم". انظر : التفسير والمفسرون (١/ ١١٢)

انتقل إلى الصحيح مما سواه ، وإلا اجتهد رأيه بالشروط والضوابط المذكورة للاجتهاد .

يقول العلامة ابن كثير : " فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَمَا أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟ فَالْجَوَابُ إِنَّ أَصَحَّ الطُّرُقِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ فَمَا أجمل في مكان فإنه قد بسط فِي مَوْضِعٍ آخَرَ (١) فَإِنْ أَعْيَاكَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُوَضِّحَةٌ لَهُ ... وَالْغَرَضُ أَنَّكَ تَطْلُبُ تفسيرَ الْقُرْآنِ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ تجدْه فَمِنَ السُّنَّةِ، كَمَا قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: "بِمَ تَحْكُمُ؟ ". قَالَ: بِكِتَابِ اللَّهِ. قَالَ: "فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟ ". قَالَ: بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ: "فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟ ". قَالَ: أَجْتَهِدُ بِرَأْيِي. قَالَ: فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِهِ، وَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وفَّق رَسُولَ رسولِ اللَّهِ لِمَا يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ" (٢)

وَحِينَئِذٍ إِذَا لَمْ نَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِذَلِكَ لِمَا شَاهَدُوا مِنَ الْقَرَائِنِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي اخْتُصُّوا بِهَا، وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ لَا سِيَّمَا عُلَمَاؤُهُمْ وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الرَّاشِدِينَ، وَالْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنه ، ... فإِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ وَلَا وَجَدْتَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ، فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ التَّابِعِينَ ؛ فإنهم إِذَا أَجْمَعُوا عَلَى الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بَعْضٍ وَلَا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ أَوِ السُّنَّةِ أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ ". (٣)

---

١) قلت : وما أطلق في قراءة قيد في قراءة أخرى ، وما أجمل في قراءة فصل في قراءة أخرى .

٢) [سنن أبي داود ٣/ ٣٠٣]

٣) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٨)

- كما أن المفسر مطالب بتقديم آيات القرآن الكريم على غيرها من النصوص الشرعية عند التعارض التام بينها ، وعدم إمكان الجمع ، ولا يصار إلى القول بنسخ شيء من القرآن الكريم إلا بحجة .

الضابط الثاني: عدم الخوض في بيان معاني القرآن قبل الإلمام بالعلوم التي تعين على ذلك، كاللغة والبلاغة وعلومهما وأصول الدين ومصطلح الحديث ومن قبل ذلك مباحث علوم القرآن الكريم. ويعد هذا الضابط امتدادا ومكملا لسابقه ، فإن لتفسير القرآن الكريم طريقين ، طريق التفسير بالمأثور –وقد سبقت الإشارة إليه بترتيب مصادره في كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله– وطريق التفسير بالرأي والاجتهاد ، وهذا عند عدم الوقوف على نص مأثور يلزم الأخذ به في التفسير ،

وهنا لا بد للمفسر أن يكون أهلا للاجتهاد وإعمال الرأي في بيان معاني القرآن الكريم، وفي كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله ما يشير إلى أهمية ولزوم هذا الوصف (إجمالا) في المفسر ، فقد قال ﷺ –بعد أن ساق أدلة المانعين للتفسير بالرأي– : " والآثار الواردة في ذلك مَحْمُولَةٌ عَلَى تَحَرُّجِهِمْ عَنِ الْكَلَامِ في التفسير بما لا علم لهم فيه. فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ لُغَةً وَشَرْعًا فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا رُوِيَ عَنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَقْوَالٌ فِي التَّفْسِيرِ، وَلَا مُنَافَاةَ ؛ لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيمَا عَلِمُوهُ وَسَكَتُوا عَمَّا جَهِلُوهُ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ السُّكُوتُ عَمَّا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ فَكَذَلِكَ يَجِبُ الْقَوْلُ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ "[1]

أما تفصيل وصف (العلم) الذي ينبغي على المفسر الإلمام به ، فقد تناقله أساطين المفسرين جيلا بعد جيل ، حتى كان إجماعا متواترا إلى

---

١) وفي قوله رحمه الله (فَكَذَلِكَ يَجِبُ الْقَوْلُ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ) نظر ، فإنه يجعل التفسير بالرأي واجبا على من كان أهل للاجتهاد ، والأمر ليس كذلك فغاية ما فيه الإباحة لا الوجوب ، كما أنه يجعل الجواب من العالِم لازما في كل أحواله ، والأمر ليس كذلك أيضا فقد يمتنع العالم عن الجواب إن كان هناك من هو أعلم منه ، أو إذا كان السؤال عن أمر غير مفيد ، أو يجيب جواب الحكيم . والله أعلم .

زماننا ، ومجموع ما اتفقوا على لزومه أمران : الأمر الأول في تفصيل تلك العلوم ، والأمر الآخر في الواجب في منهج المفسر ،

أما الأمر الأول (العلوم التي يحتاج إليها المفسر) فأنقلها من كلام العلامة الدكتور الذهبي رحمه الله ، إذ يقول : " الأول – علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"، ثم إنه لا بد من التوسع والتبحر فى ذلك، لأن اليسير لا يكفى، إذ ربما كان اللفظ مشتركاً، والمفسِّر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر، وقد يكون هو المراد.

الثانى – علم النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره. أخرج أبو عبيدة عن الحسن أنه سُئِل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حُسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال: حسن فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها.

الثالث – علم الصرف: وبواسطته تُعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: "ومَن فاته المعظم، لأنَّ "وجد" مثلاً كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها"، وحكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال: "من بدع التفاسير قول مَن قال: إن الإمام فى قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الإسراء: ٧١] جمع "أُمّ"، وأن الناس يُدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن "أُمَّاً" لا تُجمع على إمام".

الرابع – الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين، اختلف باختلافهما، كالمسيح مثلاً، هل هو من السياحة أو من المسح؟

الخامس والسادس والسابع – علوم البلاغة الثلاثة "المعانى، والبيان، والبديع": فعلم المعانى، يُعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وعلم البيان، يُعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وعلم البديع، يُعرب به وجوه تحسين الكلام..

وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسِّر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يُدرك إلا بهذه العلوم.

الثامن: – علم القراءات: إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع – علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسِّر أن يستدل على ما يجب فى حقه تعالى، وما يجوز، وما يُستحَل، وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسِّر فى ورطات.

العاشر – علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم، والخصوص، والإطلاق، والتقييد، ودلالة الأمر والنهى، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم.

الحادى عشر – علم أسباب النزول: إذ أن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية.

الثانى عشر – علم القصص: لأن معرفة القصة تفصيلاً يعين على توضيح ما أجمل منها فى القرآن.

الثالث عشر – علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكوم من غيره. ومَن فقد هذه الناحية، ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع فى الضلال والإضلال.

الرابع عشر – الأحاديث المبيِّنة لتفسير المجمل والمبهم، ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه.

الخامس عشر – علم الموهبة: وهو علم يُورثه الله تعالى – لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: {واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله} .. [البقرة: ٢٨٢] .. وبقوله ﷺ : "مَن عمل بما علم وَرَّثه اللهُ علم ما لا يعلم".

قال السيوطى بعد أن عَدَّ علم الموهبة من العلوم التى لا بد منها للمفسِّر: "ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شئ ليس فى قدرة الإنسان. وليس الأمر كما ظننت من الإشكال، والطريق فى تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال فى البرهان: "اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ولا تظهر له أسراره، وفى قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب دنيا، أو هو مُصِّرٌ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسِّر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حُجُب وموانع بعضها آكد من بعض" قلت: وفى هذا المعنى قوله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق} [الأعراف: ١٤٦]" (١)

السادس عشر : –من كلام صاحب تفسير المنار– " علم أحوال البَشر، فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبيَّن فيه ما لم يُبيِّن

١) التفسير والمفسرون (١/ ١٩٠)

فى غيره، بَيَّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم، والسُنن الإلهية فى البشر، وقصَّ علينا أحسن القَصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسُنَّته فيها، فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالَم الكبير، عُلويه وسُفليه، ويحتاج هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه.

قال الأستاذ الإمام: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسِّر قوله تعالى: {كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [البقرة: ٢١٣] .. الآية، وهو لا يعرف أحوال البَشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرَّقوا، وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها، وهل كانت نافعة أو ضارة، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم " [١].

وأما الأمر الآخر (الواجب في منهج المفسر) : فهو أن يتجرد –في تفسيره– من نصرة مذهب أو اتباع لهوى أو مغالاة في تأويل؛ لأن هذا كله ليس له إلا معنى واحد وهو أنه يجعل القرآن خادما لأغراضه هو ،خاضعا لأحكامه هو، تابعا لآرائه هو .

وهذه مزلة كثير من أقدام مفسرين حازوا قصب السبق في العلوم التي يحتاج إليها المفسر ، بيد أنهم لما كانوا أصحاب مذهب –يصطدم في بعض مفرداته مع صريح القرآن الكريم– انتصروا لمذهبهم ولم ينحنوا أمام نصوص الوحي ، وجعلوا من مذهبهم حاكما ومن القرآن محكوما ، وما تفسير العلامة الزمخشري عنا ببعيد !!

١) تفسير المنار (١/ ٢٠)

الضابط الثالث : الثقة التامة بالنص القرآني من كل وجوهه .. قراءات ، ولغة ، ورسما ، وأخبارا ، وأحكاما .

وذلك بناء على كون القرآن كله متواترا ، وكونه كله من عند الله ﷻ لفظا ومعنى ، وسلامته من التناقض،

وهذا الضابط يمنع المفسر من الانزلاق في مزلة الشبهات التي تلقى على القرآن الكريم منذ نزل وحتى يومنا هذا[١] –ولا تتوقف– بغرض التشكيك في سلامته والانتقاص من قدسيته

كما أنها تحمي المفسر المجتهد من الانزلاق في مزلة تقديم العقل على النص القرآني أو إخضاع النص القرآني لنظريات علمية لم يثبت صدقها بعد ،

ذلك لأن (التواتر) أعلى درجات الصحة في نقل النصوص ، وهو متحقق في كل آيات القرآن الكريم ، ومعنى تحققه أن القرآن الكريم كله قطعي الثبوت .

ولأن القرآن (كلام الله رب العالمين) ؛ فلا أحد أصدق من الله قولا وإخبارا وتكليفا ووعدا ووعيدا ، ومعنى هذا عدم تطرق الخلل والخطأ إلى هذا الكتاب المجيد ، كما قال ﷻ ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

١) لعلمائنا –قديما وحديثا– مؤلفات تعنى بهذه الشبهات عرضا وردا ، منها على سبيل المثال : تأويل مشكل القرآن – لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) ، درء تعارض العقل والنقل . لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب]. لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) . وغيرها .

وقد زلت في هذا الأمر أقدام أناس لا يزال يشار إليهم بالبنان – ليس في علم التفسير فقط ، إنما– في علوم كثيرة ، منهم الزمخشري صاحب تفسير الكشاف ، الذي أكثر من تحكيم عقله وفكره في كثير من آيات القرآن الكريم وحكم عليها بما يتفق مع مذهبه ، وخالف في ذلك جمهور المسلمين .

الضابط الرابع : مراعاة الأسلوب الأقرب للأفهام ، والأبسط للعوام.

اقتضى نزول القرآن الكريم منجما في ثلاث وعشرين سنة أن تتعدد وجوه مخاطباته، فخطاب الناس في القرآن المكي يختلف عنه في المدني، وهو في المكي يقص القصص ويدعو للتفكر في الكون ويدل الناس على الخالق ﷻ، وهو في المدني يصدر أحكاما، ويشرع عبادات وحدودا، ويلزم بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ﷻ،

حتى إن بعضهم قد جعل من قواعد فهم النص القرآني : " المدني من السور يكون منزلا في الفهم على المكي ، وكذا المكي بعضه مع بعض ، والمدني بعضه مع بعض ، على حسب ترتيبه في النزول" [١] وذلك لأن ترتيب القرآن الكريم في النزول يشبه ترتيب البناء في وضع اللبنات ، فالمتأخر في النزول (المدني) مؤسس على ما قبله (المكي) غير منفصل عنه ،

ولا شك أن اختلاف الخطاب بين المرحلتين يؤسس لهذا الضابط المذكور ، فكما أن الله ﷻ خاطب كل قوم على قدر ما لديهم من معارف، فكذلك ينبغي على المفسر أن يخاطب الناس على قدر معارفهم ويتطور في أسلوبه معهم تبعا لتطور الخطاب في الآيات .

---

١) قواعد التفسير جمعا ودراسة – خالد بن عثمان السبت (١ / ٨٠) ط دار ابن عفان .

الضابط الخامس: التوفيق والجمع بين ما ظاهره التعارض من نصوص القرآن الكريم وتقديم ذلك على القول بالنسخ .

ويظهر الاحتياج إلى هذا الضابط في حالتين ، إحداهما : حين يتوهم التعارض بين آيتين في موطنين مختلفين ، كالأمر بالعفو والصفح مع الخائنين في قوله ﷻ ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين ﴾ [المائدة: ١٣] مع الأمر بالقتال والجهاد معهم كما في قوله ﷻ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] والآيتان مدنيتان ، والقول بالنسخ فيهما أسهل للمفسر في ظاهر الأمر ، لكن الجمع بينهما وإعمالهما معا هو الأليق بخصائص القرآن الكريم ، والأوفق بقدسية نصوصه ، ومن وجوه الجمع بينهما : أن ذلك راجع لزمانين مختلفين وحالين متغايرين ، ففي الآية الأولى كلام عن خيانة لعهد الله مع بني إسرائيل أن يتبعوا رسول آخر الزمان وأن يحفظوا التوراة من التحريف وأن لا يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ، لكنهم خانوا كل هذه العهود حين كذبوا رسول الله محمدا ﷺ وكتموا البشارة به في توراتهم ، فهؤلاء يعفى عنهم حتى يهدي الله قلوبهم للإسلام ، أما الآية الأخرى فتتحدث عن خيانة (عسكرية) تتمثل في نقض عهد قوم ما مع المسلمين ، وتمالئهم مع الأعداء على حرب المسلمين، فهؤلاء لا عفو عنهم ولا صفح ولا رحمة ولا هوادة.

والحالة الأخرى: حين تكون هناك قراءة صحيحة متواترة في آية واحدة ليست في معنى القراءة الأخرى، فكأن القراءتين آيتان منفصلتان، كما في قولهﷻ ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيد﴾[البروج: ١٥] فكلمة (المجيد) قرئت بالرفع خبرا لضمير لفظ الجلالة، وقرئت بالجر صفة للعرش، فلا يحكم

المفسر بوجود تعارض ببن القراءتين ، بل يحكم أنهما آيتان، كل واحدة منهما تفيد معنى .

الضابط السادس : تجريد آيات القرآن الكريم وتمييزها عن غيرها من النصوص .

وهذا بناء على كونه المعجزة الوحيدة الباقية إلى يوم القيامة، وعلى وجوب تقديسه والعناية به، وهذا يتطلب أن تتميز نصوصه في الكتابة بما يخصها، وتظهر الحاجة لهذا الضابط في عموم التفاسير التي يخلط المفسر فيها بين القرآن وبين غيره من الكلام، فيجب أن توضع النصوص القرآنية بين قوسين مميزين، كما تظهر الحاجة إلى هذا الضابط عند ترجمة معاني القرآن إلى لغة أخرى، يقول العلامة الدكتور الذهبي – في شروط الترجمة التفسيرية–: " رابعاً – أن يكتب القرآن أولاً، ثم يؤتى بعده بتفسيره، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن"[1] .

---

١) [التفسير والمفسرون ١/ ٢٤]

الضابط السابع : عدم القطع بمعنى معين في تفسير آية اجتهد المفسر في بيانه؛ ليبقى باب الاجتهاد مفتوحا للاحقين، وتبقى صفة الإعجاز باقية في الآية .

لا أحد يعلم المقصود بجملةٍ ما مثلُ قائلها ، ولأن القرآن الكريم كلام الله ﷻ فلا يعلم مراد الله إلا الله ﷻ، هكذا ينبغي أن نتعامل مع النص القرآني الكريم ، فمهما اجتهد المفسر في الوصول لمعنى آية –ليس عنده فيها نص صريح صحيح يفسرها– فلا بد له في نهاية الأمر أن يكل العلم ويفوض المعنى إلى الله ﷻ ، وإلا يكون بهذا قد خطا خطوة على طريق التفسير المذموم ، ولعل هذا سر امتناع –من امتنع من– الصحابة عن القول في القرآن باجتهادهم ، كما روى البيهقي عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ فَقَالَ: «أَيَّةُ أَرْضٍ تُقِلُّنِي وَأَيَّةُ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي أَوْ أَيْنَ أَذْهَبُ أَوْ كَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا قُلْتُ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا» [1].

١) [المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي ص: ٤٣٠] .

الفصل الثانـي
الضوابط المتعلقة بأهداف القرآن الكريم

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أهداف القرآن الكريم .

المبحث الثاني : ما لا يسع المفسر تركه من ضوابط بناء على أهداف القرآن الكريم .

المبحث الأول : أهداف القرآن الكريم

أولا : تعريف الأهداف :

الأهداف أو الأغراض أو المقاصد مفردات استعملها المفسرون قديما وحديثا ، تعبر كلها عن محتوى هذا المبحث ،

ويعد أقدمها استعمالا (الأغراض) فقد وردت عند النيسابوري[١] في (إيجاز البيان عن معاني القرآن) ، فقد جاء في تفسيره مطلع سورة (ص): " ذِي الذِّكْرِ: ذي الشّرف، أو ذكر الأنبياء والأمم، أو ذكر جميع أغراض القرآن" [٢] وعند السيوطي أيضا في (الإتقان) إذ يقول عن سورة الفاتحة : " وهي أصل القرآن لانطوائها على جميع أغراض القرآن وما فيه من العلوم والحكم " [٣]

ويمكن إجمال أهداف القرآن الكريم في عدة نقاط ، لكل منها تفصيل..

أما الأهداف الإجمالية ، فهي :

١. الإعجاز .
٢. إثبات نبوة الأنبياء ، خاصة عيسى ﷺ ومحمد ﷺ .
٣. تصحيح العقائد .
٤. تشريع الأحكام .
٥. تهذيب الأخلاق .

---

١) النيسابوري : محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين ، مفسر لغويّ، له تصانيف منها «باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن» و «إيجاز البيان في معاني القرآن» و«خلق الإنسان» و «جمل الغرائب» في غريب الحديث ، نشأ على أرض نيسابور ، ورحل إلى غزنة، ثم رحل إلى حلب ثم دمشق واستقر بها حتى مات عام ٥٥٠ هـ تقريبا .

٢) إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٧٠٥)

٣) الإتقان في علوم القرآن (ط مجمع الملك فهد) (٢/ ٣٥١)

وأما تفصيلها ، فعلى النحو التالي :

الهدف الأول : الإعجاز .

أخرج الإمام النسائي في سننه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلَهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١) هذا الحديث يدل على ما يلي :

أولا : أن كل نبي من أنبياء الله ﷻ كانت له معجزاته التي دلت على صدق دعواه النبوة .

ثانياً : أن قوم كل نبي عجزوا أن يأتوا بمثل هذه المعجزة .

ثالثاً : أن شأن كل معجزة آتاها الله لنبي أن تكون ملجئة لمن نزلت فيهم أن يؤمنوا بالله ويصدقوا نبيهم .

رابعاً: أن المعجزات نوعان، فهناك معجزات يخاطب بها معاصروها فقط ، وهي غالب معجزات الانبياء ، بينما هناك معجزات تبقى بعد موت النبي فترة من الزمن ويخاطب بها من رآها وعاينها .

خامساً: أن معجزة القرآن الكريم من النوع الثاني فهو معجزة النبيﷺ الكبرى ، الباقية ليوم القيامة ويخاطب به كل من وصله .

ومنه نتبين أن من بعض الحكم في حفظ الله ﷻ القرآن الكريم إلى يومنا هذا أنه معجز لكل من يتعامل معه ، وأنه دعوة مستمرة للإيمان بالله ورسوله ،

---

١) [السنن الكبرى للنسائي ٧/ ٢٤١]

ومن هنا كان لزاما على كل من يتصدى لتفسير آيات كتاب الله أن يعرج على جوانب الإعجاز التي تظهر له فيها ، فيبديها ولا يخفيها ؛ لتبقى صفة الإعجاز قائمة في آياته .

وبعيدا عن سر إعجازه الذي اختلف فيه علماؤنا ، فقد انعقدت كلمتهم سلفا وخلفا على وجود الإعجاز فيه ؛ لذلك لن ينخرط البحث في مسألة تحديد سر إعجاز القرآن ، بل نكتفي بتعداد وجوه إعجازه التي تناولها سلفنا على اختلاف مذاهبهم ، ومن هذه الوجوه :

أولا : الإعجاز في النظم .

ويظهر هذا الوجه حين يتناول المفسر الألفاظ مستقلة ، فيبحث في معانيها : ولماذا عبر القرآن بهذا اللفظ دون سواه، ويبحث في أحوالها : من الغرابة والاستعمال ومن الحقيقة والمجاز وغيرها، وفي تقلباتها : في العدد [١]، والإعراب، والنوع[٢]، والتعريف والتنكير، وفي تركيبها مع غيرها في الجملة ، إلى غير ذلك من وجوه في نظم الكلام [٣] .

ولنضرب مثالا يوضح المراد : في قول الله ﷻ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [الأعراف:١٦٠] نلاحظ تقديم ذكر الوحي إلى موسى بين يدي الكلام هنا ، والتعبير بضمير العظمة (نا) في الفعل (أوحينا) ، وإسناد الاستسقاء لموسى لا لرب العزة ﷻ ، وإضمار ذكر بني إسرائيل في (قومه) ، وإيثار الفعل (انبجست) دون (انفجرت) المستعمل في موضع البقرة ، إلى غير ذلك من مسائل –تتعلق بالألفاظ وتركيبها– من

١) أعني : الإفراد والتثنية والجمع .

٢) أي : التذكير والتأنيث

٣) كالذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والاسمية والمصدرية والفعلية ... الخ .

شأنها أن تبرز إعجاز القرآن الكريم في هذا الجانب بجلاء ووضوح ، فإذا ما شئت التوضيح في أحد هذه الألفاظ ، قلت لك : أَوْضَحُها تغايرُ الفعلين (انفجرت ، وانبجست) الأول في سورة البقرة ، والآخر في سورة الأعراف ، والفعلان يشيران إلى معنى واحد هو خروج الماء من الصخر ؛ معجزة لسيدنا موسى ﷺ ، غير أن دلالة الفعل الأول على المعنى أشد وأوضح ، فالانفجار : خروج الماء بقوة وغزارة ، أما الانبجاس فخروج الماء في هدوء وقلة ، والقرآن الكريم يعبر بالفعل الأول في موضع سورة البقرة ؛ لعدة أمور ، منها : أن السورة من أولها تحمل معنى التكريم ، ومن متطلبات التكريم زيادة العطاء ، بخلاف الحال في سورة الأعراف ، ومنها : أن فاعل الاستسقاء في سورة البقرة هو موسى النبي ، ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ في حين أن فاعل الاستسقاء في الأعراف هم قومه ﴿ إذ استسقاه قومه ﴾ ، وعطاء الله لنبيه أعظم من عطائه لعامة خلقه ، ومنها –أخيرا– : إن المطلوب منه في سورة البقرة هو رب العزة سبحانه –وإن لم يصرح به هناك– في حين أن المطلوب منه في الأعراف هو موسى ﷺ ، ولا يستوي المخلوق والخالق ؛ لذا كان اختيار هذا اللفظ في البقرة دون الأعراف .

ثانيا : الإعجاز في التناسب [١] .

وأعني به بيان وجوه ارتباط وتناسق أجزاء القرآن مع بعضها من وجه ، ومع المعاني المرادة من وجه آخر ،

---

١) وهي مسألة مختلف فيها –اختلافا ظاهريا– كما حقق ذلك فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد الشرقاوي في بحثه (موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات) وحققته في بحثي (نظرات في علم المناسبات) .

ويظهر هذا الوجه بقوة حين يشرع المفسر في تفسير مفتتح سورة ، أو ينتقل إلى آية ذات موضوع مغاير لما تحدثت عنه الآية السابقة لها.[١]

ومن المعلوم أن القرآن الكريم نزل منجما في ثلاثة وعشرين عاما ، فبَيْن أجزائه تباعد في الزمان لا ريب ، كما أن عدد سوره أربع عشرة ومائة ، وفيها الطوال والمئون والمثاني والمفصل ، وفيها المكي والمدني ، وكذا فيه موضوعات شتى ما بين القصص والأحكام والعقائد والتربية ...

وإن كتابا هذا شأنه (في الزمان والتقسيم والموضوعات) خليق – لو كان من صنع بشر– أن يكون بين أجزائه نوع من التباعد، أو بين موضوعاته نوع من التضارب، لكنه –لأنه كلام الله ﷻ– فكله لحمة واحدة (كالدائرة تنتقل فيها بأريحية دون أن تشعر أنك غيرت اتجاهك أو فقدت توازنك)، ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ .

ودونك المثال :

في صدر القرآن الكريم تطالعنا سورة الفاتحة ، وفي ختامه تطالعنا سورة الناس ، والسورتان مكيتان ، وعلى طرفي المصحف ، فما أقرب ما بينهما زمانا ، وما أبعد ما بينهما ترتيبا ، والسؤال عن مناسبة سورة الفاتحة لما قبلها (سورة الناس) يطرح نفسه على المفسر، والجواب عنه سهل ميسور، ففي كل من السورتين ثلاث صفات لرب العزة ﷻ وهي (الألوهية ، والربوبية ، والملك) والصفات الثلاث تشير إلى أحقيته ﷻ بالانفراد بالعبادة والطاعة ، وبها يفتتح القرآن الكريم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٤]

---

١) للمناسبات في القرآن الكريم وجوه عدة منها (تناسب السورتين ، تناسب الآيات ، مناسبة الرسم ، مناسبة الحركة ، مناسبة الكلمة ، مناسبة السياق) وقد بينت ذلك –بالتطبيق بأمثلة– في بحثي المذكور .

وبها كذلك يختم ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ ﴾ [الناس: ١ – ٤]

هذا في سورتين متباعدتين في الترتيب ، فكيف بما سواهما ؟!!! من هنا كان لزاما على المفسر أن يتناول هذا الجانب أيضا من الإعجاز، متى تيسر له ذلك .

ثالثا : الإعجاز الغيبي .

في القرآن الكريم قصص عن السابقين وأحوالهم ، وفيه ذكر للمعاصرين له ، وما يكون منهم ، كما أن فيه خبرا عن اللاحقين وما سيحدث معهم ، ناهيك عما فيه من أخبار الآخرة التي لما تأت بعد .

فمن الأول (قصص السابقين): نقرأ قصة بدء الخلق ، وقصص الأنبياء إدريس ونوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ، وقصص غيرهم من المؤمنين كقصة عزير ، ومريم ، وأهل الكهف ، وأصحاب الأخدود ، وغيرهم من الكافرين كقارون وفرعون وأصحاب السبت وأصحاب الفيل .. وغير هؤلاء وأولئك كثير ، لم يكن لدى النبي ﷺ ولا لدى قومه علم بشيء من أخبارهم ، وذكرها الله في قرآنه دليلا على صدق النبي ﷺ في نبوته ، وإعجازا لقومه أن يأتوا بمثلها أو يكذبوا شيئا منها .

ومن الثاني : نقرأ ما جاء في سورة الروم عن أخبار الحرب بين بلدين قويين كانا يحكمان العالم وقتها ، وهما الفرس والروم ، قال تعالى: ﴿الم(١) غُلِبَتِ الرُّومُ(٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الروم: ١ – ٥] وقد وقع ما حكاه القرآن الكريم ، فقد ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ الم. غُلِبَتِ الرُّومُ.

فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ قَالَ: غُلبت وغَلَبت. قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فذُكر ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ،، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ" فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا. فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:"أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُون" أُرَاهُ قَالَ: "الْعَشْرِ". "قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ. ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ (١)

ونقرأ أيضا ما حكاه القرآن عن عدو الاسلام (أبو لهب) الذي لو شاء هو وامرأته أن يكذبا القرآن وأن ينقضا دعوة الإسلام من أساسها ، لتَفَوَّها –ولو ظاهرا فقط– بكلمة الكفر، لكن صدق قول الله فيهما ، أنهما سيعيشان كافرين ويموتان كافرين ويكون مصيرهما النار : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [المسد: ١ – ٥] ، بل نقرأ ما هو أعظم من ذلك ، ألا وهو الإخبار عما في نفوس المخاطبين ، وليس أفصح –في هذا المقام– من آيات سورة التوبة ، التي فضح الله بها نفوس المنافقين وكشف عوراتهم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي

١) [تفسير ابن كثير ت سلامة ٦/ ٢٩٧]

أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩] ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٥ – ٧٩]

ومن الثالث : نقرأ أنباء آخر الزمان مما يتعلق بهذه الأمة أو مما يتعلق بغيرها من الأمم ، في مثل قوله ﷻ ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧] وكم تكررت محاولات أعداء المسلمين صدَّ الناس عن الإسلام ، بالحرب تارة وبالمكر تارة ، ومثل ما جاء فيه من علامات الساعة كخروج الدابة ، قال ﷻ ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢] وخروج يأجوج ومأجوج ، قال ﷻ ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩]

ومن الأخير : ما جاء في ذكر أحاديث الناس يوم القيامة مع بعضهم ، كحديث أهل الأعراف ، وأهل الجنة ، وأهل النار مع بعضهم ، وحديث أهل النار مع الملائكة ، ونعيم أهل الجنة ، وتلاوم أهل النار فيما بينهم .... إلخ ذلك مما حفلت به آيات القرآن الكريم .

رابعا : الاعجاز التشريعي .

لم ينزل القرآن الكريم لمجرد أن تلوكه الألسنة ، أو تطرب به الآذان، لكنه نزل –في المقام الأول– لينظم للناس حياتهم في كل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والسياسية ،

ففي الجانب الأول بين أهمية المال وأنه عصب الحياة وزينتها ، وبناء عليه حدد طرق اكتسابه ، واقترح سبل استثماره وإنمائه ، وبين وجوه إنفاقه .

وفي الجانب الثاني أكد على طبيعة البشر وأنهم لا يستغنون عن بعضهم ، وأن التواصل بينهم سر بقاء الحياة ، فوضع لهذا التواصل أطرا وضوابط ، متى التُزِمَت صار المجتمع مستقرا آمنا متقدما ، ومتى خولفت حاق الخطر به من كل جانب ، فقرر الأخلاق ، وأسس العلاقات .

وفي الجانب الثالث : بين كرامة العقل ، إذ جعله وعاء لنصوص الشريعة ، كما جعله مناط التكليف بالشرع ، من هنا جعل الحفاظ عليه مقصدا أساسيا من مقاصد الشرع ، ودعا الناس إلى ضرورة إعماله وتنميته ،

وفي الجانب الأخير نظم علاقة المسلمين مع غيرهم من الأمم ، فبين لهم : متى ، ومن ، وكيف يحاربون ؟ ومتى ، ومن ، وكيف يسالمون؟ وان الأصل في المسلم أن ينشر السلام في هذا العالم كله ، ولا يحارب إلا إذا حورب .

وإن القرآن –إذ يعرض لهذه الجوانب وغيرها– ينادي في كل البشر : من كان عنده نظام للحياة –في أي جانب– أفضل مما عندي فليتقدم به،

وكم رأينا من أنظمة وضعية ظهرت إلى الوجود في بعض البقاع ، وادعى أصحابها لها الرقي والإبداع ، فكانت على أربابها وبالا ، وفي أعناق متبعيهم أغلالا ،

فما ضر المفسر –وهو يتناول شيئا من هذه الآيات– أن يبين قوة النظام الذي شرعه الإسلام ، ويميط اللثام عما فيه من محاسن ومزايا .

خامسا : الإعجاز العلمي [١] .

"في القرآن الكريم ما يزيد على ألف آية تتحدث عن معالم هذا الكون، وتذكر مفرداته من: السموات والأرض، والشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والجبال والبحار والأنهار، والمطر والرعد والبرق.. إلى آخره وإذا كانت هذه الآيات قد ذكرت تلك المفردات في سياق لفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله عز وجل في الخلق، استدلالاً على تفرده سبحانه بالربوبية والألوهية، وقياساً عليها أحقية البعث الذي أنكره الكفار، فإنها مع ذلك قد جاءت في أسلوب وعبارة تفتح أمام العقل البشري آفاقا واسعة للتفكير في دلالاتها عبر عصوره المتعاقبة من بعد نزول القرآن، فيقوم لديه من هذه الدلالات في كل عصر ما يشهد بالحق الذي جاءت به.

وفي عصرنا الذي نعيشه، وفي غضون عشرات قليلة من السنين، وبالقياس إلى تاريخ البشرية الممتد وصلت المكتشفات العلمية المتعلقة بالكون في آفاقه، وفي أنفس مخلوقاته ما لم تصل إليه من قبل.

---

١) وهو أمر غير (التفسير العلمي) الذي اختلف أهل الفن في تعريفه ، وفي حكمه ، فالتفسير العلمي للقرآن الكريم يقصد به أن يوظف أهل كل جيل كل المعارف المتاحة لهم –الثابت منها وغير الثابت– في حسن فهم دلالة القرآن الكريم ؛ لأن التفسير يبقى جهداً إنسانيا يصيب الإنسان فيه ويخطئ، وخطأ الإنسان في التفسير لا ينسحب على جلال القرآن الكريم، بل ينسحب على المفسر.

وانطلاقاً من اهتمامنا –نحن المسلمين– بكتاب ربنا تبارك وتعالى، فإن علماءنا في هذا المجال بدؤوا يمعنون النظر والفكر في هذه الآيات، ويتلمسون فيها من جوانب القدرة –فيما أشارت إليه– ما يعد جانبا من جوانب الإعجاز القرآني، يصلح لدعوة الناس إلى دين الله سبحانه، في زمن فتن الناس فيه بالعلم –وبما تحقق من منجزاته– فتنة عظيمة، وهذا ما يطلق عليه– من جوانب الإعجاز القرآني– الإعجاز العلمي " (١)

ويظن الكثير من المستعملين لهذا المصطلح (الإعجاز العلمي) أنه متعلق فقط بالعلوم العملية من طب وهندسة وحساب وفلك ، وهذا فهم قاصر ؛ لعدة أمور :

الأول : أن كلمة (العلمي) –نسبةً إلى العلم– عامة تشمل جميع أنواع العلوم ، نظرية وتطبيقية وغيرهما .

الثاني : أن القرآن يخاطب كل الناس على تنوع مشاربهم واختلاف مذاهبهم ، وهو معجز لكل الناس في كل ما توصلوا إليه من علوم ، وتنوع آياته ناطق بذلك .

الثالث : أن ما اشتمل عليه القرآن الكريم من آيات تتحدث عن حقائق في هذه العلوم (العملية) قليل ؛ فقصره عليها يلغي الانتفاع بجانب الإعجاز في أنواع العلوم الأخرى .

الرابع : أن ما في القرآن الكريم من (حقائق علمية) جاء تأسيسا لها، لا تأكيدا على أمر كان معروفا عند الناس ، وهو في ذلك قد سجل سبقا علميا في شتى أنواع العلوم من طب وهندسة وفلك وتاريخ ودعوة ولغة وغيرها .

---

١) [عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم – ا.د /محمد السيد جبريل ص: ٥٩] بتصرف يسير

وعليه : فحين نقول بوجود (الإعجاز العلمي) في القرآن الكريم فإننا نقصد كل الحقائق العلمية التي أتى بها القرآن الكريم في أي مجال من مجالات العلوم ، نظرية كانت أو تطبيقية ، سواء كان ذلك تأسيسا وسبقا لما لم يكن معروفا عند المخاطبين به ، أو تعديلا لمفهوم خاطئ عندهم .

يقول العلامة ابن عاشور –في تفسير قوله تعالى﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ : " وَمِنَ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ جَمَعَتْ أُصُولَ الِاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ الْحَقِّ، وَهِيَ الْبُرْهَانُ وَالْخَطَابَةُ وَالْجَدَلُ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا فِي عِلْمِ الْمَنْطِقِ بِالصِّنَاعَاتِ وَهِيَ الْمَقْبُولَةُ مِنَ الصِّنَاعَاتِ. وَأَمَّا السَّفْسَطَةُ وَالشِّعْرُ فَيَرْبَأُ عَنْهُمَا الْحُكَمَاءُ الصَّادِقُونَ بَلْهَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ" [١].

فعلى المفسر –إذا تصدى لتفسير القرآن الكريم– أن يتناول كل وجوه الإعجاز فيه ، متى أمكنه ذلك ، دون إخلال بنظم القرآن الكريم .

١) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٣١)

الهدف الثاني : إثبات نبوة الأنبياء ، خاصة عيسى ﷺ ومحمد ﷺ .

ذكر القرآن الكريم عددا من الأنبياء والرسل قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ، وبلغ عدد من صرح القرآن باسمه منهم ، واتفقت كلمة العلماء سلفا وخلفا على نبوته، خمسة وعشرين نبيا ، ذكر منهم في سورة الأنعام ثمانية عشر ، قال ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣ – ٨٦] وتتمتهم : آدم ، وإدريس ، وذو الكفل ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وخاتمهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

كما ذكر القرآن الكريم أن هناك من الرسل من لم يصرح به ، قال ﷻ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْك ﴾ [غافر: ٧٨].

ولأن كثيرا من أقوام الأنبياء السابقين كذبوا أنبياء الله ﷻ ، وبعضا منهم رفعوا أنبياءهم فوق مستوى البشر ؛ فقد جاء القرآن حاملا بين طياته ما يؤكد صدق هؤلاء الأنبياء في دعواهم النبوة ، وأنهم ليسوا سوى بشر ، ومن وراء ذلك التأكيد على نبوة حامل القرآن نفسه ، محمد ﷺ ، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في خطوات ثلاث:

أولا : أخبر خبرا جازما ، مكررا ، أنهم جميعا أنبياء من عند الله ﷻ ، ومعلوم أن إقرار صاحب الحق –الله ﷻ – خير دليل على صدق صاحب الدعوى– النبي ﷺ – ، ونقرأ في هذا الإقرار قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣ – ١٦٥] ونقرأ كذلك قوله ﷻ بعد أن قص طرفا من قصة إبراهيم ﷺ في سورة مريم : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩ – ٥٨] ونقرأ –أيضا– قوله ﷻ : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] .

فانظر إلى تنوع الإقرار –بين إجمال وتفصيل– ، وإلى قوته –بتكراره وبالمؤكدات المتنوعة– تتيقن أن القرآن الكريم يريد أن يقرر في نفوس المخاطبين نبوة هؤلاء الرسل وصدقهم في دعواهم .

ثانياً : أخبر عن شرائعهم وسيرهم :

وهذا من طرق أهل السنة في إثبات نبوة الأنبياء ، جاء في شرح الطحاوية : " وهذا النوع من الدلائل هو أعظم الأدلة؛ وذلك أنَّ محمدا ﷺ جاء بأخبار تَصْدُقْ على جميع النبوات والرسالات-:

- جاء بخبر عن الله – عز وجل –، وهذا الخبر: منه ما يتعلق بالماضي، ومنه ما يتعلق بالحاضر، ومنه ما يتعلق بالمستقبل.
- وجاء بأمر ونهي، وهذا الأمر والنهي هو ما يدخل في الشريعة، والأوامر متنوعة والنواهي متنوعة.
- وجاء بأقوال ، هو قالها في التبليغ ، وأفعال له.

وكل هذه بمجموعها تدل للناظر على أنَّ من قال وأَخْبَرَ عن الله وفَعَلَ وأَمَرَ ونَهَى فإنه صادق فيما قال؛ لأنّ كلَّ مدَّعٍ للخبر والأمر والنهي وله أقوال وله أفعال وليس على مرتبة النبوة ، فلابد أن يظهر لكل أحد كذبه فيما ادعاه وتناقضه في أقواله وأفعاله وضَعْفُ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ وعدم إِصْلَاحِهِ وأشباه ذلك.

ولهذا فقد جعل الله – عز وجل – لمحمد ﷺ الكمال فيما أخبر به، وفيما أمر به، وفيما نهى، وفي أقواله وأفعاله، فَجَعَل إتِّباعه في الأقوال والأفعال إتِّباعاً مأمورا به ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] ، وقال ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] ، وجعل ما يخبر به الرسول – ﷺ – كخبر الله – عز وجل –؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، ونحو ذلك.

فاستقام أمره ﷺ في هذه الأمور الخمسة، ولم يُعْرَف أنَّ أحداً طعن في شيء من هذه الأشياء واستقام على طعنه ولم يستسلم؛ بل كُلُ من طعن في واحد من هذه الأشياء فإنه آل به أمره إلى الاستسلام، أو أن يكون طعنه مكابرة دون برهان.

لهذا نقول إن هذا الدليل من أعظم الأدلة التي تُفَرِّقُ ما بين الرسول والنبي الصادق وما بين مُدّعي النبوة، فإنّ الرسول له أحوال كثيرة يُسْمَعْ في أقواله، يُرَى في أفعاله، أوامره ونواهيه جاءت بماذا؟ أخباره جاءت بماذا؟

ونبينا محمد ﷺ أَخْبَرَ عن أشياء حدثت في الماضي لم يكن العرب يعرفونها، وجاء تصديقها من أهل الكتاب وما كان يقرأ ﷺ كتب أهل الكتاب، وجاء بأخبار عما سيحصل مستقبلاً، وجاء بأخبار عما سيحصل بين يدي الساعة وحصلت بعده ﷺ شيئاً فشيئاً، منها ما حصل بعد موته سريعا، ومنها ما يحصل شيئا فشيئا، ومنها ما سيحصل بين يدي الساعة، وكل هذه الأخبار في تصديقها دالة على أنه لا يمكن أن يُعْطَاهَا إلا نبي.

كذلك ما أمر به ﷺ وما نهى عنه فهو موافق للحكمة البالغة التي يعرفها أهل الدين ويعرفها أهل العقل الراجح، حتى إنَّ الحكماء شهدوا في الزمن الماضي وفي الزمن الحاضر بأن شريعة محمد ﷺ هي شريعة ليس فيها خلل لا من جهة الفرد في عمله ولا من جهة التنظير في المجتمع بعامة.

وكذلك ما في أفعاله ﷺ فكان ﷺ له المقام الأكمل في التخلص من الدنيا والبعد عن الرِّفْعَة – يعني والترفع على الناس – بل كان ﷺ أكمل الناس في هديه وفي تواضعه وفي قوله وفي عمله ﷺ ، وكان أكمل الناس في عبادته، وكلُّ دعوى لمن ادَّعَى النبوة فلا بد أن يظهر فيها خلل في هذه الأشياء"[1]. وهذا شأن سائر الأنبياء عليهم جميعا صلوات الله وسلامه .

---

١) [شرح الطحاوية لصالح آل الشيخ = إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل ص: ٨٢، بترقيم الشاملة آليا] بتصرف يسير .

ثالثا : حدد مهمتهم ، ووضح منزلتهم ، وأكد على طبيعتهم

والمهمة التي تجمع الأنبياء جميعا هي دعوة الناس إلى عبادة الله وحده وإلى مكارم الأخلاق ، وقد جاء ذلك إجمالا في ثنايا الكلام عن الرسل إجمالا ، وتفصيلا في قصص أكثرهم ،

قال ﷻ في شأن دعوة الأنبياء للناس إجمالا إلى توحيد الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقال في حق نوح ﷺ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال في حق هود ﷺ : ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥] وفي حق صالح ﷺ : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه ﴾ [الأعراف: ٧٣] وكذا في شأن سائر الأنبياء عليهم جميعا صلوات الله وسلامه .

كما فصَّل ﷻ في شأن تكليف الأنبياء بدعوة الناس إلى مكارم الأخلاق ، فبين في قصة كل نبي الفضيلة التي كان يدعو قومه إليها إلى جانب توحيد الله ﷻ ، فبين أن مهمة هود ﷺ دعوة قومه إلى الاقتصاد في المعيشة وعدم التبذير والإسراف وألا يظلموا الناس معتمدين على قوة أجسامهم وكثرة أعدادهم ، قال ﷻ : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٢٣ – ١٣١] وبين كذلك أن مهمة لوط ﷺ

الأخلاقية ، وهي أن ينهى قومه عن الفاحشة ، فقال ﷻ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[الشعراء: ١٦٠ – ١٦٦] وبين كذلك مهمة شعيب ﷺ الأخلاقية في قومه ، وهي ضبط تعاملاتهم التجارية ، قال ﷻ : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦ – ١٨٣]

ومن وراء هؤلاء جميعا بين أن مهمة النبي محمد ﷺ أمر الناس جميعا بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وتزكية أخلاقهم ، قال ﷻ : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال ﷻ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

وأما منزلة الأنبياء ، فقد بين ﷻ أن كل الأنبياء عنده ﷻ في أعلى المنازل ، وقرر ذلك من خلال ما يلي :

أولا : أكد أن النبوة اختياره ﷻ وأن كل الأنبياء مختارون ليتنزل عليهم الوحي ، قال ﷻ ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقال ﷻ ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾ .

ثانيا : صرح بتفضيلهم جميعا على كل الخلق ، فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِين ﴾ [آل عمران: ٣٣] وقال : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِين ﴾ [الأنعام: ٨٦]

ثالثًا : أوجب طاعتهم في كل ما جاءوا به ، قال ﷻ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] وكرر الأمر بطاعتهم على ألسنتهم هم ، فجاء قوله ﷻ ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ على لسان نوح وإبراهيم وهود وصالح لوط وشعيب وعيسى (١)

رابعًا : أوجب توقيرهم وتقديرهم ، قال ﷻ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٨، ٩] ، وقال ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٢)إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٣)إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ١ – ٤] وقال ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَر ﴾ [المجادلة: ١٢]

١) راجع سورة الشعراء ، الآيات : ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٧٩ ، وسورة الزخرف الآية ٦٣ .

خامسًا : وعدهم ووعد أتباعهم بالنصر والتمكين في الدنيا ، قال ﷻ ﴿ {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَاد ﴾ [غافر: ٥١] وقال ﷻ ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيز ﴾ [المجادلة: ٢١]

سادسًا : أوعد مكذبيهم بالخزي في الدنيا والإهلاك ، وهذا جاء واضحا جليا في قصص الأنبياء السابقين وكيف كانت عاقبة مكذبيهم ، قال ﷻ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠]

سابعًا : حرم الجنة على من خالفهم وعصاهم وأوجب له النار ، قال ﷻ ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِين ﴾ [النساء: ١٤]

ثامنًا : جعلهم شفعاء للخلق يوم القيامة ، أخرج الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ ﷻ ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وَسُئِلَ عَنْهَا قَالَ: «هِيَ الشَّفَاعَةُ» : "[1].

وهكذا قرر القرآن علو مقام ومكانة الأنبياء عليهم جميعا صلوات الله وسلامه ، ووضح منزلتهم عند الله ﷻ .

وحتى لا يفتتن الناس بالأنبياء ومنازلهم ، جاء القرآن الكريم بالخطوة الثالثة وهي : التأكيد على طبيعتهم البشرية ، فهم جميعا في نهاية الأمر ليسوا سوى بشر ، يأكلون ويشربون ، ويتناكحون ، ويتاجرون، ويسالمون ويحاربون ، وينامون ، ويمشون في الأسواق، وبالتالي فلا يجوز رفعهم –تحت أي زعم– إلى مقام الألوهية ، كما فعل النصارى مع عيسى

---

١) [سنن الترمذي ت شاكر ٥/ ٣٠٣]وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ .

ابن مريم ﷺ ، وقد نفى الله تعالى عن أنبيائه أن يدعوا مثل هذه الدعوى ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٧٩، ٨٠] ، لأنهم –كما سبق بيانه– ليسوا سوى بشر ،

وهنا يؤكد القرآن على بشرية اثنين من الأنبياء –شط كثير من الناس في شأنهم ، سواء كان ذلك جهلا أو حبا أو تضليلا للناس– هما عيسى ابن مريم ﷺ ، ومحمد ﷺ ، فقال في حق عيسى ﷺ : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥] وقال في حق محمد ﷺ : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، وأثبت لهما كونهما عبدين لله ﷻ ، فقال في حق عيسى ﴿ قال إني عبد الله ﴾ وقال في حق محمد ﷺ ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾

ويأتي هذا الهدف القرآني للتأكيد على ما يلي :

أولا : أن اتِّباع الأنبياء فيما جاءوا به كان واجبا في حق أقوامهم ، كل في زمانه ومكانه .

ثانيا : أن اتباع النبي الخاتم محمد ﷺ واجب في حق كل البشر الذين أدركوه أو جاءوا بعده ، فهو النبي الخاتم الذي لا نبي بعده ، وكتابه الحاكم الذي لا قول بعده ، وشريعته التامة الذي لا زيادة عليها ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

ثالثا : أن المفسر للقرآن الكريم لا يستغنى أبدا عن السنة النبوية ، فقد جاءت أحكام في كتاب الله مجملة ، تفصيلها في سنة النبي ﷺ ، كما جاءت أمور في القرآن مبهمة ، وتوضيحها في سنة النبي ﷺ ، كما جاءت أمور مطلقة ، قيدتها سنة النبي ﷺ ،

وجاءت أمور عامة ، خصصتها سنة النبي ﷺ ، هذا غير ما استقل بتشريعه النبي ﷺ رأسا ولم يأت ذكره في القرآن الكريم .

الهدف الثالث : تصحيح العقائد .

العقيدة : فعيلة ، بمعنى مفعول ، وهي الأمور العلمية التي يعتقدها الإنسان في نفسه لدرجة لا تقبل الشك ، سواء كانت خيرا أو شرا ، صوابا أو خطأ ، جاء في المعجم الوسيط : " (العقيدة) : الحكم الَّذِي لَا يقبل الشَّك فِيهِ لَدَى معتقده ، و(فِي الدّين): مَا يقْصد بِهِ الِاعْتِقَاد دون الْعَمَل كعقيدة وجود الله وَبَعثه الرُّسُل " (١)

وقد نزل القرآن الكريم –يوم نزل– في أناس استحالت عقائدهم كلها باطلا وزورا ، سواء في ذلك عقيدتهم في خالقهم أو في ملائكة الرحمن ورسله ، أو في حياتهم ومماتهم ، أو في الكون من حولهم ، فكان من أهدافه الأساسية تصحيح هذه الانحرافات في كل المجالات ، ومن ذلك :

- تصحيح اعتقادهم في الله ﷻ
- تصحيح اعتقادهم في الملائكة
- تصحيح اعتقادهم في تنظيم حياتهم .
- تصحيح اعتقادهم في رسل الله ﷻ
- تصحيح اعتقادهم في الحياة والموت
- تصحيح اعتقادهم في القضاء والقدر

وهذه الستة هي أركان الإيمان ...

ودونك التفصيل :

أولا : تصحيح اعتقادهم في الله ﷻ

أقر الناس جميعا –على اختلاف مللهم– بأن الله ﷻ هو خالقهم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[الزخرف: ٨٧]، وأقروا كذلك أنه ﷻ

---

١) [المعجم الوسيط ٢/ ٦١٤]

خالق الكون كله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّه ﴾ [العنكبوت: ٦١] ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّه ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩] ، كما أقروا أنه ﷻ رازقهم , وأنه مدبر أمر الكون كله ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١]

ورغم كل ذلك الذي أقروا به له ﷻ إلا أنهم أساءوا تقديره ﷻ ، فبعضهم جعل بينه وبين خالقه واسطة ؛ فأشرك من دونه آلهة –يزعم أنها – تقربه إلى الله زلفى ، وبعضهم ظنه محتاجا لصاحبة وولد –تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا– فنسبوا إليه من أرادوا تعظيمه من البشر، وآخرون ظنوا أنه ﷻ بشر مثلهم ، فألصقوا به من النقائص والعجز ما ينزهون عنه آحادهم ؛ فأراد القرآن الكريم أن يصحح كل هذه الاعتقادات الخاطئة والتصورات المنحرفة ، فرفض كل صور الشرك باللهﷻ ، ونفى نفيا جازما أن يكون لله ﷻ صاحبة أو ولد ، كما أثبت لهﷻ كل كمال ونفى عنه كل نقص ، وساق الادلة القاطعة والبراهين الساطعة على زيف كل ذلك – ونحوه– مما يعتقدونه فيه ﷻ

فساق الدليل على نفي الشريك فقال ﷻ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ [الأنبياء: ٢٢]

وساق الدليل كذلك على نفي الولد عنه ﷻ فقال ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَة ﴾ [الأنعام: ١٠١]

كما شنع على الذين افتروا عليه ﷻ الكذب ووصفوه بالنقائص ، من الفقر والبخل والضعف ، إذ كيف يكون فقيرا وله ملك السماوات والأرض؟ وكيف يكون بخيلا وعطاؤه غير محدود في غابر الزمان وحاضره وقابله ؟ وكيف يكون ضعيفا وهو الذي أهلك المكذبين في كل زمان رغم قوتهم وقسوتهم ؟

ومن ثم ألجأهم إلجاء إلى الإقرار أنه لا إله إلا الله ، فهو وحد المستحق للعبادة والطاعة والتقرب .

<u>ثانياً : تصحيح اعتقادهم في الملائكة .</u>

الملائكة : خلق من مخلوقات الله، لهم أجسام نورانية لطيفة ، قادرون على التشكل والتمثل والتصور بالصور الكريمة، ولهم قوى عظيمة، وقدرة كبيرة على التنقل، وهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله، قد اختارهم الله واصطفاهم لعبادته والقيام بأمره، فلا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وقد أقر المشركون بوجود ملائكة لله ﷻ ، حتى إنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة مع الرسل دليلا على صدقهم في رسالتهم ، فقالوا ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ !! ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ !!

لكنهم أخطأوا في تصور حقيقتهم ، فزعموا أنهم إناث ، وأنهم بنات الله ﷻ ، وفرقوا بينهم حبا وبغضا .. وكان من أهداف القرآن تصويب هذه الأخطاء وتصحيح هذه التصورات ؛ من خلال ما يلي :

- تقرير طبيعة الملائكة ، قال ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] .

- بيان وظائفهم ، ومنها : السفارة بينه ﷻ وبين عباده ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١] ، وكتابة أعمال العباد ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[الزخرف: ٨٠]، وقبض أرواح الخلائق ساعة الموت ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[الأنعام: ٦١] ، وتوزيع أرزاق العباد والبلاد من ريح ومطر كما قال ﷻ ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا(١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا(٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا(٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾[الذاريات: ١ – ٤] وقال ﷻ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا(١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا(٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا(٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا(٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ [المرسلات: ١ – ٥]
- نفى أن يكون الملائكة إناثا قال ﷻ منكرا على الكفار ذلك: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾[الإسراء: ٤٠]، وقال ﷻ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ [النجم: ٢٧].
- جعل محبتهم علامة الإيمان وبغضهم وعداوتهم علامة الكفر فقال ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٩٨].

ثالثاً : تصحيح اعتقادهم في تنظيم أمور حياتهم (التشريع) :

كرم الله ﷻ الإنسان بالعقل ، وبه قام التكليف ، ورتب عليه الحساب في الدنيا والآخرة ، فمن سلبه الله ﷻ عقله لا تكليف عليه ولا حساب ، ومن حكمته ﷻ أن جعل الله ﷻ الخلق متفاوتين في عقولهم، مختلفين في ميولهم وأهوائهم ،

وقد اقتضت طبيعة خلق الإنسان أن يكون مخلوقا اجتماعيا ، لا يستطيع العيش وحده ، لكن لا بد له من أناس آخرين ، يتعاون معهم من أجل بقاء الحياة .

كما اقتضت طبيعته أيضا أن يحتاج –في هذا الاجتماع– إلى قانون ينظم له حياته ، فيوجهه للخير ويكافئه على فعله ، ويحذره من الشر ويعاقبه على تركه ، وقد اعتقد كثير من الناس –قديما وحديثا– أن تنظيمَ أمور الحياة وسن القوانين فيها أمرٌ موكول إلى كُبرائهم وأذكيائهم ، فأباحوا لأنفسهم أن يضعوا القوانين لتنظيم أمور الحياة ، ونسوا أن الصانع للشيء هو الأعلم بطرق صيانته ، وبما ينفعه ويضره ، فجاء القرآن الكريم يوجه الناس إلى ضرورة الانصياع لشرع الله ﷻ في كتابه وأن ذلك حق الله ﷻ وحده ، وأن من يجسر على منازعته ﷻ هذا الحق فقد احتمل بهتانا وإثما عظيما ، وجاء ذلك على النحو التالي :

أولا : قرر أن الله ﷻ هو الذي كرم الإنسان بالعقل ، وأعطاه من وسائل الفهم والإدراك ما يمكنه من حسن تقدير الأمور ، وبالتالي فلا يقبل أن يكون رأي المخلوق (العقل) أرشد وأحكم من قول الخالق ﷻ .

ثانيا : قرر ﷻ طبيعة الاختلاف بين الناس ، في أبسط صوره ، فقال ﷻ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُم﴾ [الروم: ٢٢] وفيما هو أعظم من ذلك ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[هود: ١١٨] ، ومن كان هذا شأنه صعب أن يسلم قياده لمثيله .

ثالثا : قرر أن تنظيم أمور الحياة وتشريع القوانين حق خالص لله ﷻ لا يجوز للعقل أن ينازعه فيه ؛ حتى لا يكون هناك تضارب وتناقض في حياة الناس ، قال ﷻ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]

رابعا : حكم بالكفر والظلم والفسق على من عرف شرع الله ﷻ ثم تركه لغيره ، قال ﷻ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٤، ٤٥ ، ٤٧] .

وبهذا صحح القرآن الكريم اعتقاد الناس في(حق التشريع) ، وقرره خالصا لله ﷻ وحده .

<u>رابعا : تصحيح اعتقادهم في الرسل</u>

نظرا لما كان يعلمه الناس عن حقيقتهم البشرية ، وما كانوا يظنونه عن عالم السماوات من قوة فائقة قاهرة ، فقد حكم كثير منهم باستحالة التواصل بين العالمين ، ورفضوا –بناء على ما توهموه– تصديق أن يكون رجل من بينهم له اتصال بالملأ الأعلى ، وأنه –نتيجة لهذا التواصل– تجري على يده الخوارق ، فكان أن اتهموا الرسل بالكذب والجنون ، ووصفوا معجزاتهم بالسحر ، وكلامهم (الوحي) بالشعر ، وأثاروا في ذلك شبها ، توارثوها جيلا بعد جيل [1] ... فجاء القرآن الكريم ليصحح هذا التصور ، وليؤكد على خطأ اعتقادهم ، وذلك على النحو التالي :

---

١) وقد عرض لهذه الشبهات كثير من العلماء قديما وحديثا وردوا عليها بما لا مزيد عليه ، راجع في ذلك : مبحث نزول القرآن من كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ، ومقدمة كتاب النبأ العظيم للشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز ، وكتاب (مصدر القرآن– دراسة لشبهات المبشرين والمستشرقين حول الوحي المحمدي) للدكتور ابراهيم عوض .

أولا : بين أن كل العوالم مخلوقة لله ﷻ ومملوكة له ، قال ﷻ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وقال ﷻ ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُون﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] ، وقال ﷻ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦] ، وإذا كان هو الخالق للجميع فلا يصعب عليه أن يجعل هناك تواصلا بين العالم السماوي والعالم الأرضي .

ثانيا : أكد حاجة العالم الأرضي –أيا كان ساكنوه– إلى رسول من قبل الله ﷻ يشرع لهم منهاج حياتهم ، ويدلهم على الخير ، ويمنعهم عن الشر ، قال ﷻ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُول ﴾ [الإسراء: ٩٥].

ثالثًا : قرر ﷻ استحالة أن يكون لدى كل الناس القدرة على التواصل مع عالم الملائكة ، وأنه ﷻ لو أراد أن يجيبهم إلى طلبهم (أن يكون الرسول ملكا) للزم أن يأتيهم هذا الرسول (الملك)على هيئة بشرية ، قال ﷻ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩] .

رابعا : بين كذلك أن رسول الله لا يجوز له أن يفتئت على الوحي بزيادة أو نقصان ، قال ﷻ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧] ، وأن كل ما يقوم به إنما هو أمر وتوجيه من الله ﷻ ، قال ﷻ ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٢ – ٤].

وبهذا التقرير الشافي [1] قطع القرآن الكريم عليهم الحجة في مخالفتهم للرسول وإنكار نبوته .

خامسا : تصحيح اعتقادهم في الحياة والموت

تعددت أقوال المشركين وآراؤهم في الإجابة على سؤال تردده الأذهان : من أين جئنا ؟ وإلى أين المصير ؟

ومع اعتقاد أكثرهم –كما تقدم– أن الله هو الذي خلقهم ، إلا أنهم نفوا أن يكون هناك حياة أخرى بعد الموت ، يحاسبهم ربهم فيها على ما قدموا في دنياهم ، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما نحن بمبعوثين، واعتمدوا في ذلك على عقولهم القاصرة ، التي تحسب أن الأجساد إذا بليت فلا يمكن إعادتها للحياة مرة أخرى ، حتى إن أحدهم –وهو الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ– جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَيَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا ويُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ» قَالَ –الراوي–: فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧] إِلَخ السُّورَةِ" [2]

وذلك بلا شك اعتقاد خاطئ ، جاء القرآن ليصححه ، واتخذ في سبيل ذلك الخطوات التالية :

أولا : قرر بالدليل العقلي إمكان ذلك ؛ فالذي يخلق الإنسان من العدم قادر على أن يعيده خلقا جديدا متى شاء ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] .

---

١) أضف إلى ذلك ما سبق ذكره في الهدف الثاني (إثبات نبوة الأنبياء) .

٢) أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ». انظر :المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٤٦٦]

ثانيا : ضرب المثل الحي ، حين جعل للناس في كل يوم صورة مصغرة للحياة بعد الموت ، وذلك في حال النوم ، فقال ﷻ ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢] فما أشبه النوم بالموت والاستيقاظ بعده بالبعث .

ثالثا : قرر أهمية ذلك وضرورته ؛ ليقف الناس جميعا أمام الله ، فيكافئ المحسن برحمته وفضله ، ويعاقب المسيء بإرادته وعدله، قال ﷻ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

والقرآن الكريم مليء بهذه الأدلة وبتلك الأمثلة وبهذه التقارير التي تؤكد ضرورة أن يكون هناك حياة أخرى بعد الموت يستقيم فيها ميزان العدل وينال كل إنسان نصيبه المقسوم منها ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

سادسا : تصحيح اعتقادهم في القضاء والقدر :

القضاء في اللغة : هو إحكام الشيء، وإتمام الأمر، وقد ورد لفظ القضاء ومشتقاته كثيراً في القرآن الكريم، وكل معانيه ترجع إلى الأصل السابق ، ومنها:

ـ الأمر: قال ﷻ ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّتَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء، آية: ٢٣) أي: أمر سبحانه وتعالى . بعبادته وحده لا شريك له .

ـ الإنهاء: ومنه قوله ﷻ ﴿ وَكان أمرا مقضيا ﴾(مريم، آية: ٢١) أي: منتهيا .

ـ معنى الحكم: قال ﷻ ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ (طه، آية: ٧٢) أي: اصنع واحكم وافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك.

- الفراغ: ومنه قوله ﷻ ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ (فصلت، آية: ١٢) أي: فرغ من تسويتهن سبع سماوات في يومين ،

ـ الأداء: ومنه قوله ﷻ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ (البقرة، آية: ٢٠٠) أي: أديتموها وفرغتم منها .

- الإعلام: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ (الإسراء، آية: ٤) أي: وأخبرنا بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل إليهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين .

. ومعنى الموت: يقال: قضى عليه، أي: قتله، قال تعالى: ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ (القصص، آية: ١٥) أي: مات.

** وأما القدر لغة: فالقاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته [١].

١) معجم [مقاييس اللغة ٥/ ٦٢] لابن فارس .

وقد ورد القدر في القرآن الكريم على عدة معان ، منها :

- الحكم والقضاء ، قال ﷻ ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِين ﴾ [الحجر: ٥٩، ٦٠] ومن ذلك حديث الاستخارة "فاقْدُرُه ويسرّه لي" (٧).
- الطاقة قال تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ ﴾ (البقرة، آية: ٢٣٦): طاقته.
- التضييق، قال ﷻ ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَاابْتَلَاهُ فَقَدَرَعَلَيْهِ ﴾ (الفجر، آية: ١٦). يعني فضيق عليه .

ومن هذا الاستعراض لمعنى الكلمتين في اللغة واستعمال القرآن الكريم لهما يظهر مدى الترابط بينهما ، مما يجعلنا نميل إلى القول إنهما –عند افتراقهما– يقصد بهما معنى واحد ؛ ولذا نذكر لهما تعريفا واحدا ، فنقول :

المعنى الشرعي للقضاء والقدر: هو تقدير الله تعالى . الأشياء في القدم، وعلمه . ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة وكتابته ﷻ لذلك ومشيئته لها ووقوعها على حسب ما قدرها جلّ وعلا وخلقه لها .

وقد احتج كثير من الناس –قديما وحديثا– بالقدر، وقالوا –كما حكى القرآن–:﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٣٥] .

وهذا التصور الخاطئ –ومن ثم الحكم القائم عليه– قد كر عليه القرآن الكريم فقوضه من القواعد ، فخر –على أصحابه– السقف من فوقهم ، وذلك على النحو التالي :

أولا : قرر القرآن الكريم أن الله ﷻ خلق الإنسان حرا مختارا مزودا بنعمة العقل ، وأن الله ﷻ بين له سبيل الهدى وسبل الضلال وترك له الاختيار ، قال ﷻ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ [التغابن: ٢] وقال ﷻ ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] .

ثانيا : نفى ﷻ ونهى أن يكره أحدٌ على اعتناق الإسلام ، فقال ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وجاء ذلك في قصص الأنبياء السابقين ، ومنهم نوح ﷺ إذ قال لقومه ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]

ثالثا : قرر أنه ﷻ قادر على أن يجعل الناس كلهم على ملة واحدة من بداية الأمر ، لكنه لم يفعل ذلك ليترك للناس حرية الاختيار في معتقدهم ، قال ﷻ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِين ﴾ [يونس: ٩٩]

رابعا : كما قرر القرآن الكريم أنه ﷻ أرسل الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع ودعا الناس إلى الاتباع دون إلزام أو إكراه ؛ ليكون كل إنسان مسئولا عن تصرفاته متحملا عواقبه ، قال ﷻ ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣ – ١٦٥] .

وبهذا يظهر مدى حرص القرآن الكريم على تصحيح عقائد الناس وتصوراتهم لهذه الأمور التي هي أركان الإيمان ، ويظهر كذلك مدى أهمية أن يعرج المفسر على هذه الجزئيات في تفسيره ، فيبسطها للقارئ ولا يغفلها .

الهدف الرابع : وضع أصول الأحكام .

تنوعت آيات القرآن الكريم بين دعوة للتوحيد ، وتكليف بعبادات ، وضبط لمعاملات ، وتهذيب لأخلاق ، واستعداد ليوم المعاد

وهي في ذلك كله إما أن تأتي في صورة قصة عن السابقين ، أو في دعوة للتفكر في خلق الكون ونظامه ، أو في توجيه مباشر ب(افعل أو لا تفعل) ، أو في مَثَلٍ يشتمل على تحسين أوتقبيح ، ووعد أووعيد .. الخ هذه الصور القرآنية المتعددة

وما ذاك إلا لأن القرآن الكريم لا يدعو للرهبانية ، أو للانعزال عن الخالق ﷻ ، ومن هنا فقد عرض القرآن الكريم لكثير من الأحكام التي تهم الناس في حياتهم ، وشرع لهم من الأنظمة ما يكفل لهم حياة كريمة لو التزموا بما فيه ، فشرع لهم أحكاما عديدة في مجالات الحياة المتنوعة، ومنها :

أولا : أحكام اقتصادية :

تنظم وتضبط التعاملات المالية للناس ، فتبين للناس طرق ووسائل تملك الأموال ، وكيفية استثمارها ، ووجوه إنفاقها..

فمن أبرز وسائل تملك الأموال : الميراث ، وقد خصه الله ﷻ بمزيد بيان ، فبين ﷻ أصحاب الفروض وكيفية تقسيم المال بينهم ، فقال ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ

وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١١ ، ١٢] ، وفي المقابل نهى ﷻ في القرآن الكريم عن الوسائل غير المشروعة لتملك الأموال ومن أبرزها (الربا) فقال ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] والسرقة .

وكما تحدث القرآن الكريم عن وسائل تملك الأموال ، فقد تحدث عن كيفية استثمارها ، فأحل للناس التجارة بينهم ، فقال ﷻ ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ، وقال ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُم ﴾ [النساء: ٢٩]

ثم بين وجوه إنفاق الأموال في غير إسراف ولا مخيلة ، فأباح للإنسان أن ينفق على نفسه ، وأوجب عليه أن ينفق على من تلزمهم نفقته فقال ﷻ ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١] ، وشرع الزكوات والصدقات وبين مصارفها فقال ﷻ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠] وهكذا .

ثانيا :أحكام أسرية :

خلق الله ﷻ في كل من الرجل والمرأة فطرة تحمل كلا منهما على الميل للآخر ، وحتى لا يطلق الإنسان العنان لنفسه في هذا الميل فيلوث فطرته ويفسد الحياة كلها ، شرع الله ﷻ للناس أحكاما توضح الطريق الطبيعي الشرعي الوحيد لتلبية رغبات هذه الفطرة ، من أجل حفظ الأنساب وتأسيس أسرة ، فبين من يجوز للرجل الزواج بهن من النساء ، وعددهن ، وحقوقهن ، وشرع الخطبة بين الرجل والمرأة ، وهي عبارة عن تقدم الرجل للمرأة أو لوليها بطلب الزواج ، ثم يكون العقد والمهر ، فالبناء –ويكفل الإسلام لكل من الزوجين حقوقا لدى الآخر– فإذا كان بينهما ولد أوجب الإسلام للوالدين حقوقا عليهم ، وأوجب للأولاد كذلك حقوقا على والديهم ، وشرع داخل البيت أحكاما تتعلق بعورات النساء وبالاستئذان بين أفراد الأسرة ، فإذا استحالت العشرة شرع الطلاق ، وترتب عليه أحكام أخرى كالعدة والنفقة والحضانة والسكنى ... وكل هذه الأحكام المتعلقة بالأسرة قد عرض لها القرآن الكريم في سور متعددة ، كسورة البقرة ، والنساء ، والإسراء ، والنور ، والأحزاب ، والمجادلة ، والطلاق ، والتحريم.

ومن تلك الآيات : قوله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

وَسَاءَ سَبِيلًا(٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ [النساء: ١٩- ٢٥] وقوله ﷻ ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُم عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا

تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ [البقرة: ٢٣٥ – ٢٣٧] ، وقوله ﷻ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء: ٣، ٤] وقوله ﷻ ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] وقوله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون ﴾ [النور: ٥٨] وقوله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٩، ٥٠] وقوله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا(٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ١ – ٤] وبهذا البيان كفل الإسلام للإنسان أن يلبي حاجته الفطرية ، وأن يحافظ على المجتمع من الفوضى ، وعلى النوع الإنساني من الاندثار .

ثالثا : أحكام اجتماعية :

وأعني بها الأحكام التي تتعلق بتعاملات الناس مع بعضهم في المجتمع الواحد ، والتي تصل بالمجتمع –متى التزم بها– إلى قمة الفضيلة، ومن ثم تتحقق له السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة ،

وقد كان الناس قبل الإسلام يرون المجتمع طبقتين (سادة وعبيد) ، ويرونه كذلك نوعين (أقوياء وضعفاء) وبناء على هذا التقسيم الهوائي – النابع من هوى الناس– تسن القوانين الوضعية ، وعلى أساسه تطبق الشرائع السماوية ، في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا " (١)

ولذا جاء الإسلام ليضع أطرا عامة للأحكام التي تنظم المجتمع بشكل عام ، وتجعل أفراده كلهم سواء في الحقوق والواجبات ، فلا فرق بين قوي وضعيف ، أو كبير وصغير ، أو أمير وحارس ، أو غني وفقير، ووضع قواعد عامة يستثنى –بناء عليها– بعض الأفراد من بعض التكاليف ..

---

١) متفق عليه – انظر : صحيح البخاري ٤/ ١٧٥– كتاب حديث الأنبياء –باب حديث الغار حديث رقم ٣٤٧٥ ، وصحيح مسلم ٣/ ١٣١٥– كتاب الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره رقم ١٦٨٨ .

** فشرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال ﷻ ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

** وشرع آداب الطريق ، قال ﷻ ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٧ – ١٩]

** وشرع الحجاب على المرأة المسلمة متى بلغت المحيض ، قال ﷻ ﴿ {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]

** ونهى عن شهود مجالس اللغو والزور ، قال ﷻ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين ﴾ [الأنعام: ٦٨]

** وحذر من الشائعات التي لا أساس لها ، وبين ما ينبغي أن يكون موقف المسلم منها ، فقال ﷻ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ

شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١١ – ١٩]

** ونهى عن قبول خبر الواحد قبل التبين من صحته ، فقال ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]

** ووضع الحدود الزواجر لكل مخالفة من شأنها أن تضر بأمن المجتمع ..

- فشرع حد القذف فقال ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٤، ٥]،
- وشرع حد الزنا فقال ﷻ ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]،
- وشرع حد القتل فقال ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾[البقرة: ١٧٨]،
- وشرع حد السرقة فقال ﷻ ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم ﴾ [المائدة: ٣٨]،

-وشرع حد الحرابة فقال ﷻ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: ٣٣] .

وجاءت التكاليف صريحة في نصوص السنة بكثير من هذه الأحكام، من طاعة الإمام وحفظ النظام وصلة الأرحام وإفشاء السلام وعيادة المرضى واتباع الجنائز وعدم التناجي بالإثم والعدوان .. إلى غير ذلك من الأحكام التي تحفظ العلاقات الاجتماعية بين المسلمين .

رابعا : أحكام سياسية :

تنظم علاقة الدولة الإسلامية بجاراتها ، فتبين مع مَن ، ومتى ، وكيف يكون السلام والهدنة ، وتبين كذلك مع مَن ، ومتى ، وكيف يكون الجهاد والمدافعة ؟ وما يترتب على ذلك من أحكام الأسرى والشهداء .

وتبين كذلك أحوال وأحكام غير المسلمين المقيمين في أرض الإسلام ، وكذا أحوال المسلمين المقيمين في أرض غير المسلمين ..

ونقرأ في ذلك الآيات الكريمة التالية :

قال ﷻ ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ ، وقال ﷻ ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ وهما آيتان تبينان أن الإسلام لا يرفض السلام ممن يدوا إليه يدهم بالسلام ، لكنه يرفض السلام الذي يذل المسلم فيه نفسه ويبذل فيه دينه وكرامته .

قال ﷻ ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال ﷻ ﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ

إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُم ﴾ [الأنفال: ٥٦ – ٦٠] ومن النصين الكريمين يتبين لنا بعض توجيهات القرآن الكريم المتعلقة بالجهاد ، ومنها أننا لا نقاتل إلا من قاتلنا، أو نقض عهده معنا ، وأننا يجب أن نعلن الأعداء قبل قتالهم ؛ لأن إسلامهم مع حفظ دمائهم أولى ، وأننا إذا قاتلنا وجب علينا أن نكون مستعدين بكل ما أوتينا من قوة ، وأن لا نتجاوز الحق عند النصر .

ونقرأ أيضا قوله ﷻ ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤]

وقوله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم ﴾ [الأنفال: ٧٠، ٧١] وقوله ﷻ ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]

ومنها نفهم أن غير المسلم في أرض الإسلام إما أن يكون محاربا أو معاهدا أو ذميا أو أسيرا ، فالمحارِب محارَب ، والمعاهد يحفظ له عهده، والذمي نبره ونقسط إليه في غير شرك ، والأسير نحسن معاملته وندعوه للإسلام .

ونقرأ كذلك قوله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢] وقوله ﷻ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥] ومنها نفهم أن الهجرة واجبة على المسلم -إن كان في أرض غير مسلمة ولم يتمكن من إظهار شعائر دينه- إلى أرض الإسلام ، فإذا كان قادرا على الهجرة ولم يفعل فهو يتحمل الإثم وحده ، ولا يحارب أهل العهود من أجله إن استنصر بالدولة المسلمة ، أما إن كان راغبا في الهجرة إلى أرض الإسلام إلا أنه عاجز عنها ، فواجب على المسلمين نصرته واستنقاذه .

وهكذا بين القرآن الكريم هذه الأحكام أوضح بيان ، وأعطاها نصيبا كبيرا من آياته؛ ليؤكد للمفسر أن من أبرز أهدافه هو ضبط حياة البشر ومنهجهم لضمان حياة كريمة في الدنيا وسعادة كبيرة في الآخرة .

الهدف الخامس : تهذيب الأخلاق .

جاء الإسلام والناس تضطرب أخلاقهم وتمور كما يمور الماء في القدر ، عندهم من مكارم الأخلاق الشيء اليسير ، وعندهم من مساوئها ما ينوء بحمله ألف بعير !! فجاء رسول الله محمد ﷺ معلنا عن الهدف الأسمى من رسالته قائلا ﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ﴾ (١) وجاء بالقرآن الكريم معلنا عن دعوته الصريحة لتهذيب الأخلاق وتطهيرها ، قال ﷻ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال ﷻ ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ،

والقرآن الكريم –في دعوته للأخلاق الفاضلة– يتبع الخطوات التالية:

أولا : يؤكد قدم هذه الدعوة وأنها هدف أساسي لكل أرباب الرسالات والمصلحين ، ويبدو ذلك جليا واضحا في قصص الأنبياء والمرسلين والمصلحين ...

ففي قصة هود ﷺ دعوة لخلق التواضع وعدم التعالي على خلق الله، قال ﷻ ﴿ {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١]

---

١) السنن الكبرى للبيهقي (باب بيان مكارم الأخلاق حديث رقم ٢٠٧٨٢) المؤلف : أبو بكرأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)- المحقق: محمد عبد القادر عطا – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م ، والفوائد (١/ ١٢٢) – المؤلف: أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد البجلي الرازي ثم الدمشقي (المتوفى: ٤١٤هـ) – المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي – الناشر: مكتبة الرشد – الرياض – الطبعة: الأولى، ١٤١٢

وفي قصة لوط ﷺ دعوة لاجتناب فاحشة الزنا، قالﷻ ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُون﴾[الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]

وفي قصة شعيب ﷺ دعوة لعدم الغش والتطفيف في الميزان ، قال ﷻ ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨١ – ١٨٣]

وفي قصة موسى ﷺ دعوة لطيب الكلام وحسن العمل ، قال ﷻ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٨٣]

<u>**ثانيا :**</u> يقرر أن انعدام الأخلاق كان سببا رئيسا في هلاك أمم سابقة، قال ﷻ ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُون ﴾[المائدة: ٦٢، ٦٣] ، وقال ﷻ ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]

<u>**ثالثا :**</u> يقرن الدين بالخلق الحسن ، قال ﷻ ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]

رابعا : يكرر توجيه الناس إلى الأخلاق الحسنة ويمدح أصحابها ، وقد جاء ذلك في أكثر من سورة في القرآن الكريم ، قال ﷻ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١– ١٥٣] ، وقال ﷻ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا(٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا(٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا(٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا(٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا(٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[الإسراء: ٢٩ – ٣٨]، وقال ﷻ ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ

قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ – ٧٥].

المبحث الثاني: ما لا يسع المفسر تركه من ضوابط بناء على أهداف القرآن .

الغرض من الكلام الهادف توصيل رسالة لقارئه أو مستمعه ، والمعبر عن هذا الكلام –حين يشرحه أو ينقله إلى لغة أخرى– ينبغي عليه أن يستحضر هذه الأهداف في ذهنه ، حتى تتم رسالته على الوجه الأكمل ، وكلام الله ﷻ كلام هادف ، يوصل رسالة لقارئ القرآن ومستمعه، والمفسر ناقل عن الله ﷻ كلامه ، شارح للناس مراده ، فينبغي عليه أن يستحضر هذه الأهداف أثناء تفسيره ، وأن يلتزم القواعد التي تحقق هذه الأهداف ، حتى يكون تفسيره على الوجه اللائق . وأرى أن هذه الضوابط لا تخرج عما يلي :

١. بسط الكلام وتوضيحه بالمثال وتأكيده بالدليل –ما أمكن – إذا عرض للمفسر هدف من أهداف القرآن الكريم بشكل عام .
٢. التأكيد على سلامة المنهج القرآني في كل شئون الحياة وصلاحية تطبيقه في كل زمان ومكان .
٣. اعتبار ما ورد في القرآن الكريم –وكان قطعي الدلالة– حكما على ما سواه.
٤. دفع الشبهات الواردة على أصول الدين ، سواء منها ما يتعلق برب العزة ﷻ أو بأنبيائه عليهم الصلاة والسلام .
٥. تجنب الخوض في مسائل الغيب التي لا دليل صحيحا عليها .
٦. الاستعانة بالسنة النبوية المطهرة في فهم الأحكام الواردة في الآيات ، سواء بتبيين مجملها أو توضيح مبهمها أو تقييد مطلقها أو تخصيص عامها أو غير ذلك مما هو من طبيعة السنة النبوية .

٧. عدم القطع بحكم ما في مسألة فقهية عرض لها القرآن الكريم قبل أن يستقصي جميع الآيات التي تناولت طرفا من الحكم المذكور .

٨. إبراز وجوه إعجاز القرآن في كل أشكاله .

٩. عدم الحكم على المعاني التفسيرية بالمسائل والنظريات التي لم تثبت بعد .

ودونك التفصيل :

الضابط الأول : بسط الكلام في التفسير وتوضيحه بالمثال وتأكيده بالدليل –ما أمكن – إذا عرض للمفسر هدف من أهداف القرآن الكريم بشكل عام .

الضابط الثاني : التأكيد على سلامة المنهج القرآني في كل شئون الحياة وصلاحية تطبيقه في كل زمان ومكان .

وهذان ضابطان عامان في التعامل مع القرآن الكريم ، يستلزمهما أهداف القرآن الكريم بشكل عام ، فإذا عرض المفسر لآية قرآنية تشتمل على أحد أهداف القرآن الكريم –كأن تشتمل على إعلان التحدي بالقرآن الكريم ، أو تثبت نبوة نبي من الأنبياء ، أو تصحح عقيدة لدى الناس ، أو تضع أصلا عاما لحكم شرعي ، أو تؤسس لخلق إسلامي– فإن عليه أمرين ، الأول : أن يقرر الكلام عن أهداف القرآن الكريم بما يرسخها في الأذهان ، تقريرا يسهل تناوله وفهمه ، والآخر : أن يؤكد على سلامة المنهج القرآني في تحقيق هذه الأهداف

مثال : عند تفسير قوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ في سورة الفاتحة ، هذه الآية الكريمة تحمل –تصريحا– في ثناياها هدفا عظيما من أهداف القرآن الكريم ، ألا وهو تصحيح العقائد ، إذ إنها تقصر العبادة على الله تعالى وحده ، وتقصر الاستعانة عليه تعالى وحده

، وتحمل –ضمنا– هدفا آخر من أهداف القرآن الكريم ، إذ إنها تنفي أن يكون هناك أحد يستحق الألوهية والإفراد بالعبادة إلا الله ﷻ حتى لو كان نبيا ، وتحت مفهوم العبادة والاستعانة يصول المفسر ويجول ؛ ليبين للقارئ المفهومَ الشامل للعبادة المطلوبة ، ومن المستحق للعبادة ، وكيف يمكن للعادات أن تكون عبادات ، وكيف تكون العبادة صحيحة مقبولة أو فاسدة مردودة ، ويعيد الكرة في الآية ليبين معنى الاستعانة بالله ﷻ وعلاقة ذلك بسنة الأخذ بالأسباب ، وكيف أن النفع والضر والخير والشر كله بيد الله، ويسوق الدليل –من القرآن والسنة والعقل– في كل جزئية ، حتى يرسخ عند القارئ القناعة الكافية باستهداف القرآن الكريم لهذا الأمر.

ومن ثم يأخذ في جولة ثانية مع الآية الكريمة ليؤكد على سلامة المنهج القرآني في شأن العبادات بمفهومها الشرعي (الشعائر) بشكل خاص ، وفي شئون الحياة بشكل عام ، من خلال بيان وجه الربط بين العبادة والاستعانة في آية واحدة.

وقد وقفت على قريب من هذا التصور –مختصرا– عند الإمام الطبري ، حين قال رحمه الله : " ومعنى قوله: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) : وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها –لا أحدًا سواك، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة " (١) .

وأوضح منه وأبسط ما قاله الإمام القشيري في تفسيره ، إذ قال ﷺ : " (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) معناه نعبدك ونستعين بك.

١) [تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر ١/ ١٦١]

والابتداء بذكر المعبود أتمّ من الابتداء بذكر صفته- التي هى عبادته واستعانته، وهذه الصيغة أجزل فى اللفظ، وأعذب فى السمع. والعبادة الإتيان بغاية ما فى (بابها) من الخضوع، ويكون ذلك بموافقة الأمر، والوقوف حيثما وقف الشرع.

والاستعانة طلب الإعانة من الحق.

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمنّة ، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمنّة، فبالعبادة يظهر شرف العبد، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد. فى العبادة وجود شرفه، وبالاستعانة أمان تلفه. والعبادة ظاهرها تذلل، وحقيقتها تعزّز وتحمّل:

وإذا تذللت الرقاب تقربا ... منّا إليك، فعزّها فى ذلّها

ثم قال : [فصل] العبادة نزهة القاصدين ، ومستروح المريدين، ومربع الأنس للمحبين، ومرتع البهجة للعارفين. بها قرّة أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم. وإليها أشار ﷺ بقوله: أرحنا بها يا بلال» ، والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه، ونزولك بساحة جوده، وتسليمك إلى يد حكمه، فتقصده بأمل فسيح، وتخطو إليه بخطو وسيع، وتأمل فيه برجاء قوى ، وتثق بكرم أزلى، وتتكل على اختيار سابق، وتعتصم بسبب جوده في غير ضعف " [١]

وأبسط منهما -وأوضح وأوثق – ما قاله العلامة الفخر الرازي رضي الله عنه في تفسيره ، فقد عقد (الفصل الخامس في تفسير سورة الفاتحة) لتفسير هذه الآية الكريمة ، وفصل الكلام فيها في سبع فوائد ، أقتطف منها قوله : " الفائدة الثانية: قوله إياك نعبد يدل على أنه لا معبود إلا الله،

١) [لطائف الإشارات = تفسير القشيري ١/ ٤٨]

ومتى كان الأمر كذلك ثبت أنه لا إله إلا الله، فقوله: إياك نعبد وإياك نستعين يدل على التوحيد المحض واعلم أن المشركين طوائف، ... وكل ما اتخذ لله شريكا فإنه لا بد وأن يكون مقدما على عبادة ذلك الشريك من بعض الوجوه، إما طلبا لنفعه أو هربا من ضرره، وأما الذين أصروا على التوحيد وأبطلوا القول بالشركاء والأضداد ولم يعبدوا إلا الله ولم يلتفتوا إلى غير الله فكان رجاؤهم من الله وخوفهم من الله ورغبتهم في الله ورهبتهم من الله فلا جرم لم يعبدوا إلا الله ولم يستعينوا إلا بالله، فلهذا قالوا: إياك نعبد وإياك نستعين، فكان قوله: إياك نعبد وإياك نستعين قائما مقام قوله: لا إله إلا الله " [(١)]. ، ومثلهم كثير [(٢)]

أما أن يعرض المفسر عن الكلام عن هذه الأصول القرآنية في أول تعرض لها ، فهذا ما لا نبتغيه في التفسير

١) [تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ١/ ٢١٠]

٢) وقال مثله الزمخشري في الكشاف ، [تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ١/ ١٣] وابن عطية في المحرر الوجيز ، [تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/ ٧٢]

الضابط الثالث : اعتبار ما رد في القرآن الكريم – وكان قطعي الدلالة– حَكَما على ما سواه في كل الفروع .

وهذا الضابط له تعلق أكبر بالهدف التشريعي للقرآن الكريم ، فقد قررنا سابقا أن القرآن الكريم –ومن بعده السنة النبوية– أتى لينظم حياة البشر تنظيما تستقيم معه أمورهم وتنضبط به أحوالهم في كل مجالات الحياة ، فمتى ورد في القرآن الكريم حكم قطعي بأمر أو نهي فلا مناص من التزامه والعمل به وتقديمه على كل ما سواه ، وإن كان ذلك النص ظني الدلالة نظر في ذلك إلى أقرب وجه معتبر ، من سنة أو إجماع أو سياق أو قياس أو لغة ، فيعتضد النص به ويرجح الحكم من خلاله .

لأن القرآن الكريم كلام الله ﷻ وهو أعلم بخلقه وما يصلحهم في معاشهم ، فإن قال فقوله حق وكلامه صدق ، وإن أمر أو نهى فطاعته واجبة دون تردد أو تسويف ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فيلزم من ذلك أن يكون كل نص قرآني قطعي الدلالة حاكما على ما سواه ومقدما عليه ، وهذا هو المطرد في آيات العقائد . أما ما نطالعه في جل كتب التفاسير الفقهية من استدلال بالآية الواحدة على أكثر من قول فهو راجع إلى ما كان ظني الدلالة ، والخلاف في هذه الظنيات واسع ، ولكل مفسر مجتهد أن يرجح ما يرى متى ساعده دليله ، ولنضرب لذلك مثلا ،

قوله ﷻ ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ {البقرة: ٢٢٨}

قال العلامة القرطبي رحمه الله : " اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْأَقْرَاءِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكُوفَةِ: هِيَ الْحَيْضُ، وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مُوسَى وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ وَعِكْرِمَةَ وَالسُّدِّيِّ.

وَقَالَ أَهْلُ الْحِجَازِ: هِيَ الأَطْهَارُ، وَهُوَ قَوْلُ عَائِشَةَ وَابْنِ عُمَرَ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَالزُّهْرِيِّ وَأَبَانِ بْنِ عُثْمَانَ وَالشَّافِعِيِّ...

وَقِيلَ: الْقُرْءُ، الْخُرُوجُ إِمَّا مِنْ طُهْرٍ إِلَى حَيْضٍ أَوْ مِنْ حَيْضٍ إِلَى طُهْرٍ، وَعَلَى هَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي قَوْلٍ: الْقُرْءُ الِانْتِقَالُ مِنَ الطُّهْرِ إِلَى الْحَيْضِ، وَلَا يَرَى الْخُرُوجَ مِنَ الْحَيْضِ إِلَى الطُّهْرِ قُرْءًا. وَكَانَ يَلْزَمُ بِحُكْمِ الِاشْتِقَاقِ أَنْ يَكُونَ قُرْءًا، وَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:" وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ". أَيْ ثَلَاثَةَ أَدْوَارٍ أَوْ ثَلَاثَةَ انْتِقَالَاتٍ، .. ثم قال : فَهَذَا مَا لِلْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ اللِّسَانِ فِي تَأْوِيلِ الْقُرْءِ. " [١] ثم رجح رحمه الله أن القرء هو الطهر واستدل بعدة أدلة ، منها أولا : قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:" فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ " قال : "وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ يُؤْمَرُ بِالطَّلَاقِ وَقْتَ الطُّهْرِ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي الْعِدَّةِ، فَإِنَّهُ قَالَ:" فَطَلِّقُوهُنَّ" يَعْنِي وَقْتًا تَعْتَدُّ بِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:" وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ". يُرِيدُ مَا تَعْتَدُّ بِهِ الْمُطَلَّقَةُ وَهُوَ الطُّهْرُ الَّذِي تُطَلَّقُ فِيهِ ،

ثانيا : قوله ﷺ لِعُمَرَ:" مَرَّةً فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ". أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ. وَهُوَ نَصٌّ فِي أَنَّ زَمَنَ الطُّهْرِ هُوَ الَّذِي يُسَمَّى عِدَّةً، وَهُوَ الَّذِي تُطَلَّقُ فِيهِ النِّسَاءُ.

ثالثا : الإجماع ، فلا خِلَافَ أَنَّ مَنْ طَلَّقَ فِي حَالِ الْحَيْضِ لَمْ تَعْتَدَّ بِذَلِكَ الْحَيْضِ، وَمَنْ طَلَّقَ فِي حَالِ الطُّهْرِ فَإِنَّهَا تَعْتَدُّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ بِذَلِكَ الطُّهْرِ، فَكَانَ ذَلِكَ أولى. قال أبو بكر ابن عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَا أَدْرَكْنَا أَحَدًا مِنْ فُقَهَائِنَا إِلَّا يَقُولُ بِقَوْلِ عَائِشَةَ فِي أَنَّ الْأَقْرَاءَ هِيَ الْأَطْهَارُ. فَإِذَا

---

١) تفسير القرطبي (٣/ ١١٣)

طَلَّقَ الرَّجُلُ فِي طُهْرٍ لَمْ يَطَأْ فِيهِ اعْتَدَّتْ بِمَا بَقِيَ مِنْهُ وَلَوْ سَاعَةً وَلَوْ لَحْظَةً، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ طُهْرًا ثَانِيًا بَعْدَ حَيْضَةٍ، ثُمَّ ثَالِثًا بَعْدَ حَيْضَةٍ ثَانِيَةٍ، فَإِذَا رَأَتِ الدَّمَ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ حَلَّتْ لِلْأَزْوَاجِ وَخَرَجَتْ مِنَ الْعِدَّةِ " [1]،

رابعا : اللغة ، فتأنيث العدد (ثلاثة) يدل على أن المعدود مذكر (وهو الطهر) فهو المراد في الآية ، ويشهد لذلك "قَوْلُهُ تَعَالَى:" سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ " فَأَثْبَتَ الْهَاءَ فِي" ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ"، لِأَنَّ الْيَوْمَ مُذَكَّرٌ وَكَذَلِكَ الْقُرْءُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ"[2].

١) تفسير القرطبي (٣/ ١١٦)

٢) المصدر السابق – بتصرف

الضابط الرابع : دفع الشبهات الواردة على أصول الدين ، سواء منها ما يتعلق برب العزة ﷻ أو بأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ؛

إذ إن تصحيح العقائد في كل مجالاتها من أبرز أهداف القرآن الكريم ، بل هو الهدف الأبرز في رسالة الإسلام من لدن آدم ﷺ إلى نبينا محمد ﷺ ، فلو عرض للمفسر آية من كتاب الله في ظاهرها شبهة تمس العقيدة فواجب عليه أن ينبري للدفاع عنها ، ولا يترك الآية إلى غيرها حتى يفرغ من إزالة هذا اللبس وتوضيح هذا الإشكال .

مثال : في ظاهر قوله ﷻ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩ – ١٩١] ما يوهم نسبة الشرك إلى أبينا وأبي الأنبياء آدم ﷺ ،

وقد ذكر المحققون من المفسرين في هذه الآيات وجوهاً صحيحة يمكن إجمالها فيما يأتي:

الوجه الأول: أورد الحافظ ابن كثير نقلاً عن الطبري بسنده عن الإمام الحسن أنه قال فى تفسيرها: "﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم." ومن طريق آخر: قال الحسن: "عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعنى: جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا." ومن طريق ثالث: قال الحسن: "هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا فهَوَّدُوا ونَصَّرُوا."(١)

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٨٦/٢.

وقد أخذ الحافظ ابن كثير - وغيره من المحققين - بتفسير الإمام الحسن البصرى رضي الله عنه فقال بعد أن أورده بأسانيده: "وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه وورعه. فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن مُنَبِّه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع. والله أعلم."(١).

الوجه الثاني: قال القفال: إن الله تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك، فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سوياً، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام.

ثم قال تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزه الله عن ذلك الشرك. قال الرازي: وهذا جواب في غاية الصحة والسداد(٢) .

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٢) التفسير الكبير: ٧١/١٥.

الوجه الثالث: أن هذه الآيات من أولها إلى آخرها في حق آدم وحواء ولا إشكال في شيء من ألفاظها إلا قوله: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ فنقول: التقدير: فلما آتاهما ولداً صالحاً سوياً جعل له شركاء، أي جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامة، وكذا فيما آتاهما، أي فيما آتى أولادهما، ونظيره قوله ﷻ : ﴿ واسأل القرية ﴾ [سورة يوسف: ٨٢] أي واسأل أهل القرية.

فإن قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله: ﴿ جعلا له شركاء ﴾ قلنا: لأن ولده قسمان ذكر وأنثى، فقوله: (جعلا) المراد منه الذكر والأنثى، مرة عبر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع، وهو قوله تعالى: (فتعالى الله عما يشركون) (١) .

الوجه الرابع: ذكر الإمام أبو العزائم رحمه الله تعالى فى تأويل هذه الآيات لمحة دقيقة وجديدة، وجديرة بالاعتبار، تلك هى رأيه فى جواز أن تكون الآيتان من قول الله تعالى:﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ فى الأزواج من ذرية آدم وحواء عليهما السلام حينما ينسون فضل الله تعالى، وينسبون الفضل لأنفسهم أو ذويهم، أو حينما يخالطهم عدم الرضا عن الله سبحانه فى عطائه، وأن الشرك بالله تعالى وارد فى كلا الحالتين(٢).

(١) المصدر السابق: ١٥/٧١، ٧٢.
(٢) أسرار القرآن للإمام أبي العزائم: ٩/٢٢٢٥ . ٢٢٢٧ بتلخيص .

«وهو رأى صائب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، فقد سمى الله تعالى جحود نعمائه وعدم شكره عليها كفرًا، وتوعد فاعل ذلك بالعذاب الشديد، فكذلك حين ينسب المؤمن الفضل لغير الله تعالى، أو حين يخالطه عدم الرضا عنه سبحانه وتعالى فى عطائه ـ قد يخرج من دائرة الإيمان إلى دائرة الشرك الخفى والعياذ بالله تعالى.

وهو رأى جديد فى فهم هذه الآية الكريمة يعالج قضية هامة فى المجتمع الإسلامى، ثم إنه يؤكد خاصية من أهم الخصائص التى يمتاز بها أسلوب القرآن الكريم وهى عمومه وشموله لكل بنى آدم فى كل زمان ومكان إلى قيام الساعة»[١].

فهذه أربعة وجوه صحيحة تحمل الآيات الكريمات على أيٍّ منها، وتنتفي بذلك الشبهة، وتتفق مع عصمة الأنبياء عليهم السلام، ويكون التفسير متسقا مع أهداف القرآن الكريم .والله تعالى أعلم.

(١) الإمام أبو العزائم وجهوده في التفسير وعلوم القرآن: رسالة ماجستير للباحث / ربيع يوسف الجهمي: ص٢٥٧، ٢٥٨ بمكتبة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة.

الضابط الخامس: تجنب الخوض في مسائل الغيب التي لا دليل صحيحا عليها.

في القرآن الكريم آيات ذكرت أحداثا (قصصا) مجملة عن الأولين ، ولم تدخل في تفاصيلها ، والبحث في هذه التفاصيل لا طائل تحته ولا يعود على القارئ بنفع ، وهناك آيات تتضمن الأمور المتشابهات التي لا يعلم حقيقتها إلا الله ﷻ ، وهناك أيضا آيات تشتمل على مسائل من الغيب التي لا دليل مأثورا على تحديد ماهيتها ، وكل هذه الأمور لا ينبغي للمفسر أن يتحدث فيها ؛ حتى لا يضيع وقته في الأولى ، ولا يقع في المحذور في الأخريين .

مثال : عند قوله ﷻ ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ذكر جماعة من المفسرين حكاية غريبة عن سيدنا سليمان ﷺ أنه مر على بلبل في شجرة فقال لأصحابه: إنه يقول: إني أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفا أي التراب. وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت الخلق لم يخلقوا. وصاح طاوس فقال: يقول: كما تدين تدان. وأخبر أن الهدهد يقول: استغفروا الله يا مذنبون. والخطاف يقول: قدموا خيرا تجدوه. والرخمة تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. والقمريّ يقول: سبحان ربي الأعلى. والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه. والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت ، والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس. ومعنى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بعض كل شيء" (١)

---

١) انظر : تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٧/ ١٩٤) تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ٤٩٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٣٥٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٥٩٥) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/ ٤٦)

فهذا الأثر وإن كان فيه بعض معاني الخير إلا أن ذكره في ثنايا التفسير غير مستحسن ؛ لعدة أسباب ، أولها : أن الحقيقة التي أراد القرآن الكريم أن يعرفها الناس هي أن سليمان ﷺ كان قد أوتي هذا العلم معجزة دالة على نبوته ﷺ ، وقد دلل على ذلك تفصيلا بحواره ﷺ مع الهدهد ، وهذا القدر كاف تماما في إثبات هذه المعجزة ، ثانيا : أن عندنا في شريعتنا من النصوص الصحيحة ما يغني عن ذكر هذه الآثار التي لم تبلغ درجة الظن –ناهيك عن درجة اليقين– في صحتها ، ثالثا : إنه يفتح الباب واسعا أمام المفسر في الدخول في كل التفاصيل المماثلة التي قد تعرض له في تفسيره ، وفي هذا المضمار –لو خاضه المفسر– ضياع للأوقات والأعمار بما لا يحقق غاية ولا يشفي غلة .

الضابط السادس : الاستعانة بالسنة النبوية المطهرة في فهم الأحكام الواردة في الآيات ، سواء بتبيين مجملها أو توضيح مبهمها أو تقييد مطلقها أو تخصيص عامها أو غير ذلك مما هو من طبيعة السنة النبوية .

قرر العلماء قديما وحديثا قوة العلاقة بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وذلك من وجوه أربعة ، أولها " بيان التقرير:

وهو أن تأتي السنة بحكم موافق ومطابق للحكم الوارد في القرآن, مساوٍ له في المعنى ولم تزد عنه, سواء كانت قولية أم فعلية.

فالقولية: كأمر النبي ﷺ للصحابة بصيام رمضان وإتمام الحج وصلة الأرحام والوصية بالوالدين وبالجار وباليتامى وبالنساء وغير ذلك مما يوافق ما جاء في القرآن ويطابقه.

والفعلية: أن الله أمر في الوضوء بغسل الوجه , والكفين إلى المرفقين, ومسح الرأس, وغسل الرجلين إلى الكعبين, ففعل النبي ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى, وتعلم الصحابة منه ذلك.

النوع الثاني: بيان التفسير:

ومن الأمثلة على ذلك:

١ – أن يأتي الحكم أو القول في القرآن مجملاَ, لا يُدرى المراد منه تفصيلاً, فتأتي السنة فتبين التفصيل. ومثال ذلك أن الله تعالى أمر بالصلاة ولكن لم يبين عدد الصلوات , ولا عدد الركعات, ولا كيفياتها, ولا أوقاتها ,ولا كل شروطها, فجاءت السنة ببيان كل ذلك وتفصيله, وكذلك جاءت بتفصيل أحكام الزكاة ومناسك الحج وغير ذلك مما جاء مجملاً غير مفصلٍ في القرآن.

٢ - ومنه ما جاء في القرآن عامًا فخصصته السّنة كالحديث - الذي في الصحيحين وغيرهما- الذي يبين أن الظلم المراد في قوله تعالى: {الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام:٨٢] ليس على عمومه كما فهم بعض الصحابة بل المراد به الشرك كما بينه لهم النبي صلى الله عليه وسلم.

٣ - ومنه تقييد المطلق كالأحاديث التي بينت المراد من اليد في قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} [المائدة:٣٨] أنها اليد اليمنى وتقطع من الكف, ولا تقطع إلا فيما كان محرَّزًا وقيمته ربع دينار فصاعدًا, وقد روى الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: فَكَانَتْ السُّنَّةُ فِي الْقَطْعِ الْكَفَّيْنِ. وجاء في صحيح البخاري معلقاً: " وقطع عليٌّ رضي الله عنه من الكَفِّ ".

٤ - ومنه توضيح المشكل كالحديث- الذي في الصحيحين وغيرهما- الذي يبين المراد من الخيطين في قوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} [البقرة:١٨٧] حيث فهم منه أحد الصحابة- وهو عدي بن حاتم- العقال الأبيض والعقال الأسود فقال النبي: " إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ".

فالسنة عمومًا تبين مجمل القرآن وتخصص عامّه وتقيد مطلقه وتوضح مشكله, وهذا كله من بيان التفسير.

الثالث: بيان التبديل:

وهو أن تأتي السنة بحكم متأخرٍ مخالف أو معارض لما ذُكر في القرآن , على وجهٍ لا يمكن الجمع بينهما, فتكون ناسخة له, والنسخ من قبيل البيان لأنه بيان انتهاء أمد الحكم, ولذلك سُمي بيان التبديل, وهذا يثبته بعض العلماء وينكره بعضهم, كما بيّنا ذلك سابقًا.

الرابع: أن تأتي السنة بحكم جديد, مستقلة به, ليس له ذكر في القرآن , وهو حجة أيضًا, بدلالة صدق الرسول ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى, وقد أمر القرآن نفسه بطاعة الرسول ﷺ وبين أن طاعته إنما هي طاعة لله تعالى , فلو كان لا يطاع إلا فيما يوافق القرآن لم تكن له طاعة خاصة, بل كانت الطاعة حينئذ للقرآن فقط وهذا يخالف ما جاء في القرآن فقد قال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء:٨٠] وقال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} {النور:٥٤} وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النساء:٥٩] وقد كرر الفعل (أطيعوا) ليثبت وجوب طاعته صلى الله عليه وسلم طاعة مطلقة غير مقيدة كما يجب طاعة الله تعالى طاعة مطلقة غير مقيدة, وقال تعالى {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} {الحشر:٧}" [١] فمفسر القرآن الكريم – بالمأثور أو بالرأي أو بالإشارة– لا يستغنى عن السنة والرجوع إليها ، على أن السنة هنا مقصودة بمفهومها الواسع الذي يشمل كل ما جاء عن النبي ﷺ أو عن الصحابة أو عن التابعين .

١) الثمر الداني من لطائف التفسير والسبع المثاني (ص: ٥٧)

الضابط السابع : عدم القطع بحكم ما في مسألة فقهية عرض لها القرآن الكريم قبل أن يستقصي جميع الآيات التي تناولت طرفا من الحكم المذكور .

أكاد أجزم أنه ما من حكم تشريعي في القرآن الكريم جاء مفصلا في موطن واحد في القرآن الكريم ، بل إما أن يفرق في أكثر من سورة – كأحكام الطلاق ، والغنائم ، والاستئذان– أو في أكثر من آية في سورة واحدة ، أو أن يأتي مجملا ويفصل بعد ذلك في الكتاب أو السنة – كالصلاة والحج– أو أن ينزل على كيفية معينة في زمن ما وتتغير هذه الكيفية بعد ذلك فيما يعرف بالنسخ –كما في نسخ الوصية بآيات المواريث–

ولذلك لا يتفق للمفسر الباحث عن صورة كاملة صحيحة لحكم تشريعي أن يستنبطه من موطن واحد ذكر فيه ؛ لأن الصورة الكاملة للحكم موزعة في أكثر من موطن، قال الحافظ ابن كثير : " فَأَمَّا مَنْ حَكَى خِلَافًا فِي مَسْأَلَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ أَقْوَالَ النَّاسِ فِيهَا فَهُوَ نَاقِصٌ إِذْ قَدْ يَكُونُ الصَّوَابُ فِي الَّذِي تَرَكَهُ، أَوْ يَحْكِي الْخِلَافَ وَيُطْلِقُهُ وَلَا يُنَبِّهُ عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ أَيْضًا، فَإِنْ صَحَّحَ غَيْرَ الصَّحِيحِ عَامِدًا فَقَدْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ، أَوْ جَاهِلًا فَقَدْ أَخْطَأَ، وَكَذَلِكَ مَنْ نَصَبَ الْخِلَافَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ أَوْ حَكَى أَقْوَالًا مُتَعَدِّدَةً لَفْظًا وَيَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَى قَوْلٍ أَوْ قَوْلَيْنِ مَعْنًى فَقَدْ ضَيَّعَ الزَّمَانَ وَتَكَثَّرَ بِمَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ فَهُوَ كَلَابِسِ ثوبي زور، والله الموفق للصواب" (١).

---

١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ١١)

الضابط الثامن : إبراز وجوه إعجاز القرآن في كل أشكاله .

ليس الغرض هنا الكلام عن القدر المعجز من القرآن الكريم ، لكن التنبيه على أهمية الكلام عن وجوه الإعجاز المتناثرة المتكاثرة في القرن الكريم ، ويفرض هذا الضابط نفسه –بهذا الإطلاق– ؛ لوجوه :

أولها : أن القرآن الكريم هو (معجزة النبوة الباقية) إلى يوم القيامة ؛ فالأصل فيه وقوع التحدي به وبما فيه من حقائق متنوعة ، والله ﷻ يقول: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] ،

ثانيا : إن الكلام في (القدر المعجز منه) خاص بوجه واحد فقط من وجوه الإعجاز ، فأين سائر الوجوه الأخرى ؟!! يقول الشيخ مناع القطان : " ونحن لا نرى الإعجاز في قدر معين؛ لأننا نجده في أصوات حروفه ووقع كلماته، كما نجده في الآية والسورة، فالقرآن كلام الله وكفى.

وأيًّا كان وجه الإعجاز، أو القدر المعجز. فإن الباحث المنصف الذي يطلب الحق إذا نظر في القرآن من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغير به وجه التاريخ، أو من تلك النواحي مجتمعة, وجد الإعجاز واضحًا جليًّا " (١)

ثالثا : كما أننا نتحفظ على مضمون العبارة ذاتها ، فليس القدر المعجز سورة قصيرة أو ما يساويها من الآيات الطوال ؛ لأننا نجد في القرآن الكريم كلمات وتراكيب –ارتقت باستعمالها قمة البلاغة والإعجاز ،

---

١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٢٧٢)

سواء بمادتها ومدلولها أو بتركيبها مع غيرها ، أو بمقارنتها مع (مرادفاتها) في مواطن أخرى من القرآن الكريم .

وقد اعتنى كثير من سلفنا الصالح –من المفسرين– بهذه القضية ، وأفردوها بالكتابة والتأليف ، فألف الرماني – علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (المتوفى: ٣٨٤هـ)– كتابه (النكت في إعجاز القرآن) ، وألف الإمام الخطابي – أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)– كتابه (بيان إعجاز القرآن) ، وألف الباقلاني –أبو بكر محمد بن الطيب (المتوفى: ٤٠٣هـ)–كتابه (إعجاز القرآن) ، كما ألف السيوطي – عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) – كتابه (معترك الأقران في إعجاز القرآن) غير أن تناول هذه القضية من خلال التفسير أولى ؛ لأن هذه المؤلفات –وغيرها قديما– كان جل اهتمامها متجها إلى إبراز وجه واحد من الإعجاز –وهو الإعجاز اللغوي– دون سائر الوجوه ، كما أن الغرض من تأليف معظمها كان الدفاع عن القرآن الكريم أمام من يقولون إن المعجزة القرآنية انتهت بانقطاع الوحي ووفاة الرسول الأكرم ﷺ ،

من أجل هذا كان لزاما على المفسر أن يبرز –دون تكلف أو تعسف– وجوه إعجاز القرآن الكريم التي تظهر له ، سواء في الكلمات أو التراكيب أو الآيات ، وسواء كان إعجازا لغويا أو تشريعيا أو تاريخيا أو علميا .

الضـابط التاسـع : عـدم الحكـم علـى المعـاني التفسـيرية بالمسـائل والنظريات التي لم تثبت بعد .

وهذا ما يعرف عند البعض بالتعسف في (التفسير العلمي) ، وهو بهذا الوجه سبب من أسباب ورود الدخيل على التفسير ، ولابد من أن يتنبه المفسر –في تناول الآيات التي تتناول شيئا من المسائل العلمية– لعدة أمور :

أولًا: العلم الذي يدعو إليه الإسلام هو العلم الذي يهدي الإنسان إلى هدايته، وحسن مآله وحسن حاله في في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: إن القرآن الكريم أفاض في الحديث عن الكون، ولفت أنظار العلماء إلى آيات القدرة، وآيات الإبداع في هذا الكون التي توصّل إلى توحيدِ اللهِ، توحيد ربوبية وألوهية وأسماء وصفات.

ثالثًا: إن إعجاز القرآن لا يتوقف بحال من الأحوال على موافقة الاكتشافات العلمية الحديثة لبعض آيات القرآن؛ فإعجاز القرآن ثابت بوجوه لا حصر لها من قبل أن تتبين هذه الاكتشافات العلمية، وإن كنا نرى أن إذا تم اكتشاف حقيقة علمية يقينية ثابتة أشارت إليها الآيات، هذا نوع من الإعجاز، ربما يتلاءم مع العصور التي تكتشفه، وبما أن القرآن هو معجزةُ الله الخالدة الباقية إلى قيام الساعة؛ فإنه قد حوى أنواعًا من الإعجاز تناسب كل العصور وكل البلاد إلى قيام الساعة.

رابعًا: يستحيل أن توجد حقيقةٌ علميةٌ ثابتةٌ يقينيةٌ تتناقض مع القرآن الكريم؛ لأن خالق الكون هو الله، ومنزل القرآن هو الله فمحال أن يتناقض هذا مع ذاك.

خامسًا: القرآن غني عن العلوم الحديثة للتدليل على صحته، بينما العلوم الحديثة هي التي تحتاج للتدليل على صحتها؛ وبالتالي ليس من

العدل أن نحاكم ما يأتي في الاكتشافات العلمية- نحاكم قول الله إلى أقوال الناس.

سادسًا: الحقيقة العلمية شيء، والتعسف في تفسير القرآن بها وحمله عليها شيء آخر، فليس ضروريًّا أن نحملَ كُلَّ حقيقة علمية، ونتكلف أن نحمل النص عليها، ونؤوله بها، أو نلوي عنق الآيات، والعبارات لَيًّا؛ لنقول: إن القرآن قد سبق العلم الحديث.

سابعًا: يجب علينا أن ننظرَ إلى القرآن على أن كل ما فيه حقائق، فَمَا وافقه من الاكتشافات الحديثة على وجه القطع واليقين قبلناه، وإلا فإن النظريات تخضع للتجربة والتمحيص، وقد تصدق اليوم وتنتفي غدًا؛ فالقرآن هو كلام الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثامنًا: يجب مراعاة معاني المفردات على النحو الذي كان مستعملًا في أثناء نزولِ القرآنِ، والحظر مما طرأ عليها من تطور بعد القرون الأولى.

تاسعًا: لا يجوز لَنَا أن نعدل عن حقيقة اللفظ القرآني، وإن اتجه إلى معنى مجازيٍّ إلا إذا كان هناك قرائن، وعلامات توجب ذلك.

عاشرًا: يجب مراعاة الأساليب البلاغية في القرآن ودلالاتها.

حادي عشر: عدم قصر اللفظ على معنى واحد وردُّ بقية المعاني الصحيحة الأخرى من غير مرجح.

أخيرًا: يجب الجمع بين كل آيات القرآن التي تتحدث في الموضوع الواحد، ولا نستطيع الجزم بأن ما يقال عنه حقيقة علمية ستظل إلى الأبد هكذا، فكثير مما يكتشفه العلماء، ويقولون: إنه حقائق علمية، وتبقى فترةً طويلةً- يأتي ما ينقُضَها، ويزلزل أركانها فيما بعد.

وعليه فينبغي أن نعلم أن الحقائق البشرية غير قاطعة أما الحقائق الإلهية القرآنية فهي قاطعة ونهائية.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه ، وبعد

فإن القرآن الكريم –جل منزله– ليس كأي كتاب ، فالتعامل معه والبحث عن معانيه والتصدي لتفسيره يجب أن يكون على أسس وفي إطار ضوابط معينة تتسق مع أغراضه وخصائصه ،

وإن من أهم الضوابط التي تتسق مع خصائص القرآن الكريم :

أولا : تقديم القرآن الكريم وقراءاته المتواترة على غيره من النصوص الشرعية .

ثانيا : عدم الخوض في بيان معاني القرآن قبل الإلمام بالعلوم التي تعين على ذلك.

ثالثا : الثقة بالنص القرآني من كل وجوهه (قراءة، ولغة، ورسما، وأخبارا، وأحكاما.

رابعا : مراعاة الأسلوب الأقرب للأفهام ، والأبسط للعوام .

خامسا : التوفيق والجمع بين ما ظاهره التعارض من نصوص القرآن الكريم وتقديم ذلك على القول بالنسخ .

سادسا : تجريد آيات القرآن الكريم وتمييزها عن غيرها من النصوص .

سابعا : عدم القطع بمعنى معين في تفسير آية اجتهد المفسر في بيانه .

كما أن من أهم الضوابط التي تتسق مع أهداف القرآن الكريم :

أولا : بسط الكلام وتوضيحه بالمثال وتأكيده بالدليل –ما أمكن– إذا عرض للمفسر هدف من أهداف القرآن الكريم بشكل عام .

ثانيا : التأكيد على سلامة المنهج القرآني في كل شئون الحياة وصلاحية تطبيقه في كل زمان ومكان .

ثالثا : اعتبار ما ورد في القرآن الكريم –وكان قطعي الدلالة– حكما على ما سواه.

رابعا : دفع الشبهات الواردة على أصول الدين ، سواء منها ما يتعلق برب العزة ﷻ أو بأنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

خامسا : تجنب الخوض في مسائل الغيب التي لا دليل صحيحا عليها .

سادسا : الاستعانة بالسنة النبوية المطهرة في فهم الأحكام الواردة في الآيات ، سواء بتبيين مجملها أو توضيح مبهمها أو تقييد مطلقها أو تخصيص عامها أو غير ذلك مما هو من طبيعة السنة النبوية .

سابعا : عدم القطع بحكم ما في مسألة فقهية عرض لها القرآن الكريم قبل أن يستقصي جميع الآيات التي تناولت طرفا من الحكم المذكور .

ثامنا : إبراز وجوه إعجاز القرآن في كل أشكاله .

تاسعا : عدم الحكم على المعاني التفسيرية بالمسائل والنظريات التي لم تثبت بعد .

من هنا يوصي الباحث بما يلي :

أولا : مراجعة كتب التفاسير وعمل مختصرات لها ، تجعلها متسقة مع خصائص القرآن الكريم وأهدافه ، بما ييسر مطالعتها للقارئ العامي دون أن تخرج به إلى تفريعات واستطرادات لا علاقة لأكثرها بمعاني الآيات .

ثانياً : إلزام الباحثين في مرحلتي الدراسات العليا والدكتوراة بعدم الخروج –في أبحاثهم– عن هدي القرآن الكريم ، والاكتفاء بما يحقق الهدف ويوصل المعنى ، دون تسويد الصفحات وتضييع الأوقات بما يستغنى عنه .

ثالثا : تكليف قسم التفسير في الكليات الأزهرية بتخصيص نسبة من رسائل البحث العلمي لخدمة هذا الغرض .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

كتبه :

د / محسن عبد العظيم الشاذلي

أستاذ مساعد – في قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدمياط الجديدة